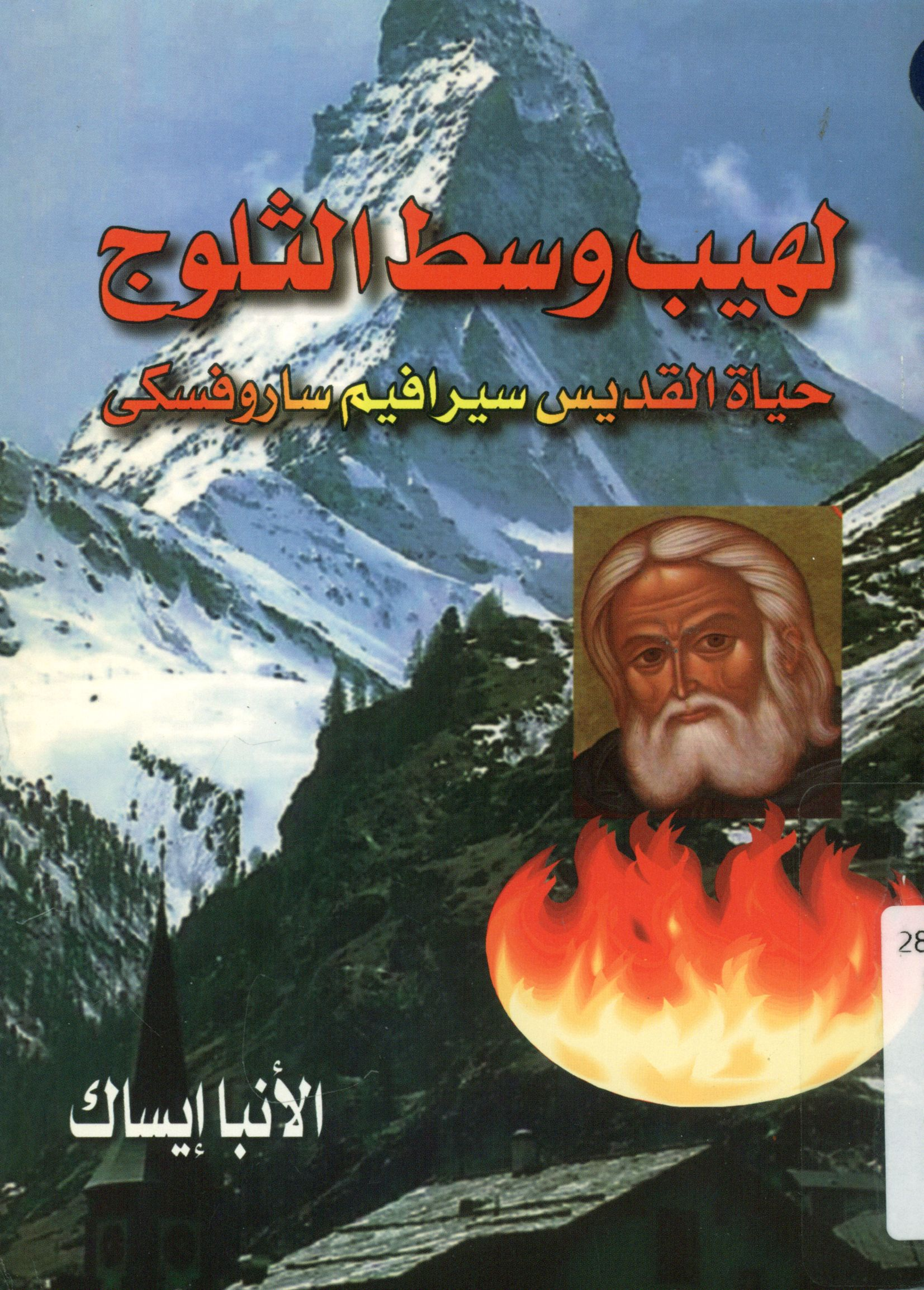

لهيب وسط الثلوج
حياة القديس سيرافيم ساروفسكى
الأنبا إيساك

اهداءات ٢٠٠٢
كنيسة مارجرجس
الاسكندرية

لهيب وسط الثلوج

حياة القديس سيرافيم ساروفسكى

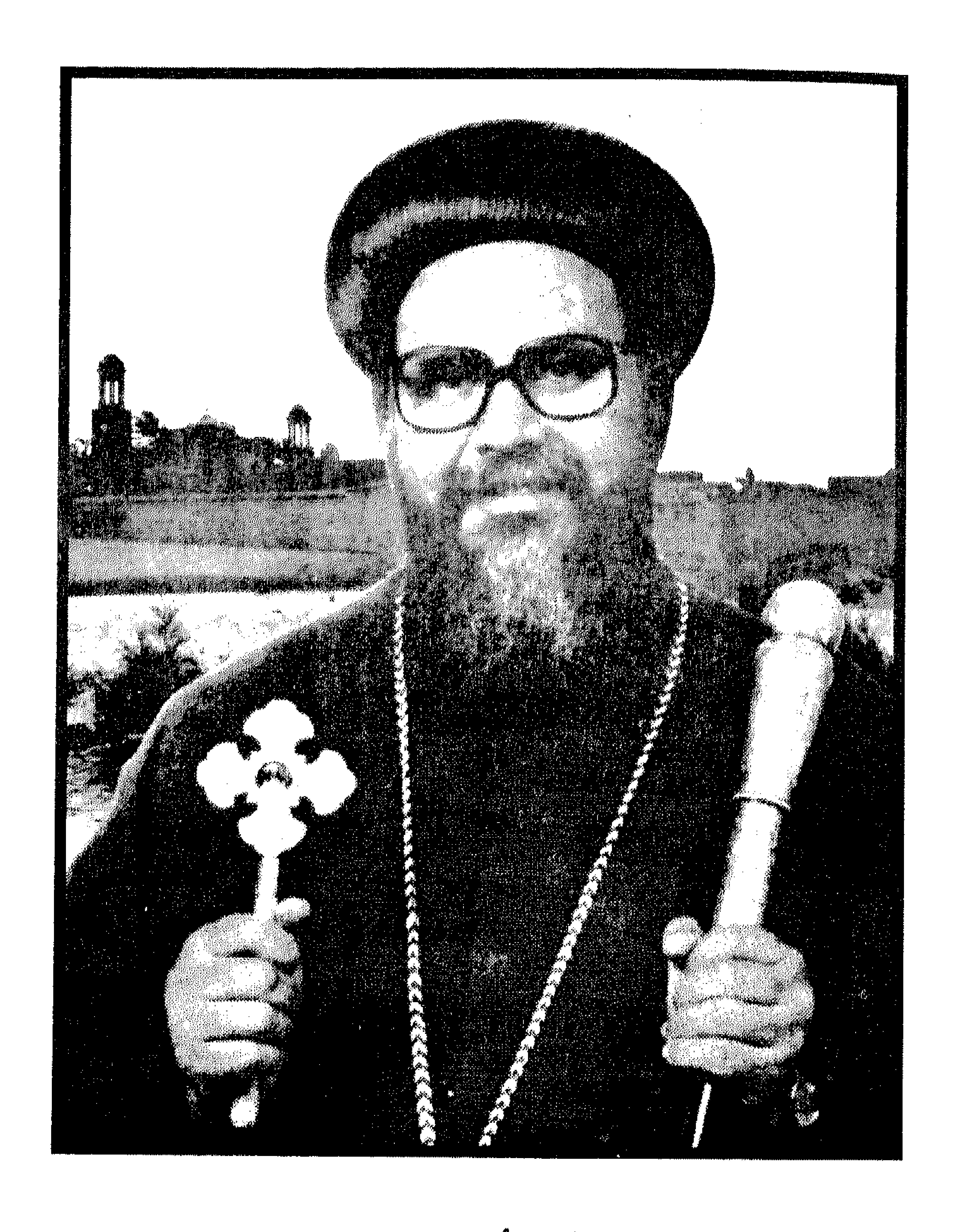
الطبعة الرابعة



الأنبا إيساك



قداسة البابا شنودة الثالث



نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الأب و الابن والروح القد اله واحد أمين

القديـــس سيرافيم ساروفسكى. إنسان تحت الألام مثلنا. ولكنه احتضـــن فى اعماقة من بداية حياته عقيدة : أن غاية الحياة المسيحية هى إقتناء روح الله القدوس... لهذا قضى آلف ليلة صلاة سائلا من الله هـــذه العطية العظمى والثمينة. وإذ بنا نرى ملامح حياة ملائكية ســـمائية مـــبهرة فيه. فقد شفى الأمراض، وعرف المستقبل، وأضاء وجهـــه كالشـــمس، وتآنس مع وحوش الغابة، وقاد نفوسا كثيرة إلى التوبة، وكان يرى وهو يمشى مرتفعا عن الارض... الخ ... الخ.

لم يجادل أحدا عن لاهوت الروح القدس، ولم يتحزب لرأى، بـــل دخـــل فى جوهر طلب العطية من الله بناء على وعوده مباشرة، فـــنال حـــياة الملء... وما أخوج هذا الجيل أن يرى ويلمس عمل الروح القدس فى الأفراد وفى الكنيسة كما فى حياة القديس سيرافيم، لان الآذان قـــد شـــبعت كلاما، والأعين لا ترى شيئا !! فأين الثمار ؟ وأين المواهب ؟

هـذه يـا صـديقى العزيـز هى الطبعة الرابعة من هـذه السـيرة العطـرة نعيد طبعها بناء على إلحاح المحبين لمـا لمسوه مـن فائدة روحية٠٠٠ الرب يعوض كل من له تعب أجرا سمائيا . وليكن هذا الكتاب

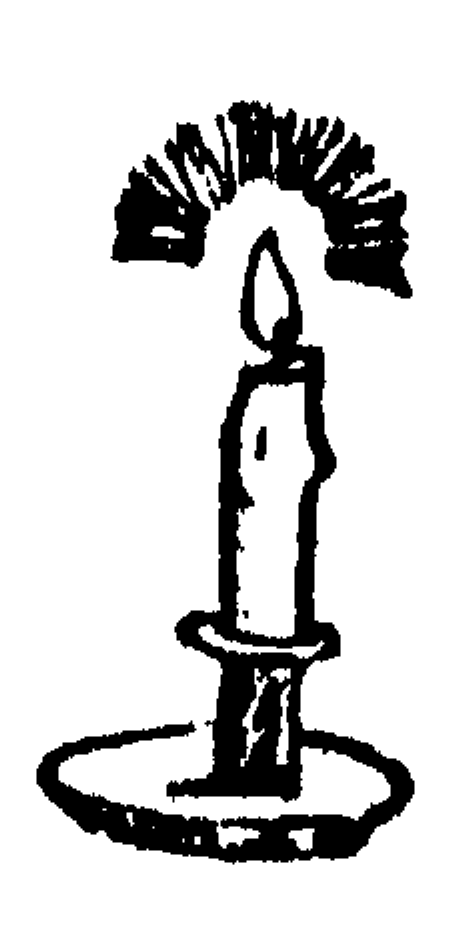
سلاما وبنيانا لكنيسة الله المقدسة،

١٩ اغسطس سنة ٢٠٠٠م

١٣ مسرى سنة ١٧١٦ش

عيـد التجـلى

إيسـاك



حياة القديس سيرافيم ساروفسكى

(١٧٥٩ - ١٨٣٣)

تمهيــــد

عالم غريب عجيب ينفتح أمامنا عندما نحاول أن نقترب من حياة قديـــس ٠٠٠ وحـــياة القديـــس سيرافيم الذى من روسيا تأتى بنا إلى أغرب الحقائق التى يمكن أن نسمعها.

ففـــى طفولته كانت توجد علامات نعمة إلهية حافظة وحارسة له وســـط كـــل مخاطر العالم، وبعد سنين طويلة من الإعتكاف للتدريب على الصلاة والسكون والجهاد الداخلى وصل فيها إلى حياة القداسة، فتح بابه لكل قادم، وأشاع فرح القيامة لكل من يقبله. و كان سلام الله يفيض منه لكل آت إلى صاروف: فكان يشفى الأمراض ويصلى من أجـــل الخطـــاة، وكـــانوا يـــرون حول وجهه هالة من النور الباهر، ويسمعونه يخبر عن المستقبل. أحب الأطفال والنفوس البسيطة، وفى غابات صروف أتت الوحوش وأكلت من يديه.

كان فى هذه الدنيا كما نحن تماما، ولا يفصلنا عنه سوى قرن من الـــزمان. فـــى صورته الطبيعية أو ايقونته يظهر كشيخ منحن بشعر أبـــيض طويل، وعيناه الزرقاواتان بلون قبة السماء مملوءتان حكمة

وتقـــوى، يـــنادى كل ضيف له "يا فرحى ٠٠٠ المسيح قام يا فرحى" ٠٠٠ (يقصـــد أن الزائـــر مصدر فرح له، والمسيح قام يقولها طول العـــام كأنهـــا التحـــية العادية) – أن فرحة القيامة هى النبع الرئيسى لحـــياته الداخلية، وقد رأى المنازل السماوية مفتوحة أمام عينيه وهو هنا على الأرض.

بـــدأ نجم القديس يلمع فى سماء الكنيسة الأرثوذكسية فى منتصف القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقيل أنه إنسان عاش فى النور واحترق ليضيئ للجميع. برزت كلماته وقدوته كحقيقة حية تحمل رجاءا جديدا للعالم الذى قارب حد اليأس فى عصرنا هذا.

إن إســـتعلان الروح القدس الذى أعطى لسيرافيم المتواضع، هو كمـــا أعلـــن القديس نفسه، مقصود به العالم أجمع، قال القديس: "أن الغاية القصوى من الحياة المسيحية هى الإمتلاء من الروح القدس" .

فلنعش فى سيرة هذا القديس العظيم ٠٠٠ بركة شفاعته تكون معنا آمين.

اكتشاف مخطوط ...

طـــرد كبير من الكراسات والأوراق الخاصة يزن بضعة ارطال، مغطى بالأتربة وزبل الحمام والقاذورات من طول بقائه منسيا لسنين طويلـــة فـــى سندرة دير ديفيفو. كان ملكا لارملة ثرى عظيم يسمى

نيكولاس موتوفيلوف وهذا كان قد شفاه الأب سيرافيم عندما كان شابا من حالة كادت تكون ميئوس منها لشلل كلى سريع الإنتشار ٠٠٠ وفى حياة الأب سيرافيم كان موتوفيلوف يدعو نفسه: الخادم الصغير للأب سيرافيم.

كـــان يقـــوم بـــدور إيجـــابى حى فى تنفيذ ارادة الأب سيرافيم، وبـــالأخص لمصـــلحة دير ديفيفو للراهبات. كان متزوجا من ابنة أخ احدى الراهبات وترك لها مذكراته وملاحظاته حين تنيح أما هى فقد أودعتها ببساطة فى سندرة الدير وعندما احست بدنو اجلها، رأت أن تعطيها لمن يكون لديه شغف بقراءتها، فاعطتها إلى المحرر الصحفى ســـرج نيلوس Serge Nilus فاخذ سرج الأوراق بشغف ولكنه كاد يصـــاب بخيبة أمل عندما وجد أن معظمها فواتير، ومستندات وحجج عقـــارات موتوفيلوف أو خطابات قديمة ليس لها أهمية، والأسوأ من ذلـــك أن نيلوس وجد صعوبة كبيرة فى قراءة خط اليد لموتوفيلوف، وكان على وشك أن يهمل هذا الموضوع وينساه. وفى ليلة بدأ يناجى الأب ســـيرافيم يائســـا: "أيها الأب، هل يعقل انك جعلتنى أجد أوراق خـــادمك الصغير موتوفيلوف فى ذلك المكان عن غير قصد فى دير ديفـــيفو لكـــى تدخـــل عالم النسيان مرة أخرى ٠٠٠؟ " وفى الصباح التالى اكتشف فى كومة المهملات التى فى يده مسودة كتاب ملئ بخط يـــد موتوفيلوف ظل طول النهار يفك رموزه. زيادة على ذلك وقعت

عيناه على جملة قالها الأب سيرافيم: "أنا متأكد أن الرب سيساعدك أن تحفظ كل هذه الأشياء فى الذهن، وبالأخص لأن نعمته ليست قاصرة عليك وحدك ولكن عن طريقك للعالم كله..." .

يا لهذا الكشف الرائع، ويا لتلك النعمة الجزيلة... هل كان القديس يتنبأ؟. ذلك الأب المتواضع الذى ظل يجاهد روحيا ٧٠ سنة، هل يمكنه أن يشعر بالمستقبل بمثل هذا التأكيد الهادئ أنه سيكون انتشارا عالميا للرسالة المودعة فى غابات روسيا الكثيفة عند علمانى صغير لا يعرف قيمتها...؟ !!

وقد نشر نيلوس المحادثة الشهيرة مع موتوفيلوف فى عدد يوليو سنة ١٩٠٣ فى جريدة موسكو جورنال تحت عنوان: "كيف أعلن روح الله ذاته للقديس سيرافيم أثناء حديثه عن هدف المسيحية"، وقد أمكنه وضع لقب "قديس" لسيرافيم لأنه فى نفس تاريخ نشر المقالة اعترفت الكنيسة الأرثوذكسية بقداسته قانونيا...

❧ ✝ ❧

١ـ الطريق

طفولته وشبابه...

ولد القديس سيرافيم فى مدينة كيرسك يوم ١٩ يوليو ١٧٥٩ ومدينة كيرسك هي احدى المدن القديمة فى وسط روسيا، مدينة مشمسة تشعرك بالسلام بمنازلها غير العالية، الزاهية الألوان، واسواقها وكنائسها العديدة، وقبابها وابراجها الجميلة، فى ماضيها ذاقت حروبا طاحنة ونكبات مرة فكان الناس يهرعون إلى الكنيسة ويصلون أمام ايقونة للسيدة العذراء تعرف بالأيقونة المعجزية.

وبروخر الصغير (وهو الإسم المعطي للقديس سيرافيم عند مولده) هو الإبن الثالث لعائلة موشنن، وله أخ واخت. كان والده يمتلك مصنعا للطوب، وكان مقاولا للمبانى موثوقا به. تنيح فى سن الأربعين بعد مولد القديس، وكان آنذاك مشغولا فى بناء كنيسة. أما أرملته المرأة الذكية النشيطة المحسنة المكرسة فواصلت استكمال بناء الكنيسة وتربية الأطفال من بعد نياحته... كان بروخر متأثرا بها بعمق وكان طول حياته يستعيد ذكراها. كانت متعودة أن تأخذ بروخر معها إلى موقع العمل، وهناك تفتحت ميوله على معمار الكنيسة.

وذات يوم وهى صاعدة سلم البرج مع بروخر وكان له من العمر ٧ سنوات غير مميز للمخاطر، خطى الصبى خطوة طائشة وسقط من فـوق الحـرف... ولكن هذه السقطة كانت معجزة بلا شك لأنه لم يـتأذ!! وأثناء الحادث كان يمر من هناك رجل من رجال الله تنبأ لأم الغلام بأن الله قد منع الكارثة لكى ما يصير بروخر قديسا عظيما...

وعـندما بلغ بروخر ١٠ سنوات اضطر أن يتوقف عن الدراسة الـتي كان متقدما فيها بسبب مرضه الذى ألزمه الفراش. وفى إحدى الليالى سمعته أمه يتكلم مع شخص ما، فاخبرها أن السيدة العذراء قد ظهرت له ووعدت أن تشفيه. وبعد أيام قليلة مر موكب يحمل الايقونة المعجزية للسيدة العذراء بمنزل موشنن، وبسرعة أحضرت أم بروخر طفلها المريض كى يتشفع ويستغيث بأم الله. وفى الحال استعاد الصبى صـحته. بعد ذلك أصبح الكتاب المقدس هو كتابه المفضل، والكنيسة هـى المكـان الذى يذهب إليه أغلب أوقاته المستطاعة. وأحيانا كان يـتقابل مـع رجـل الله الـذى كان تنبأ عنه وأصبح الأثنان صديقين حميمـين. تحت مظهر عجيب من إنكار الذات كان هذا الرجل يخفى مواهـب نبوية كان ممكنا أن تجلب له اعجابا فائقا... وكان القديس سيرافيم يبدى اعجابا عظيما بهذا النوع من القداسة...

وعـندما بلـغ بروخر السابعة عشر من عمره، اشترك مع أخيه الأكبر فى مشروع تجارى، وكان مضطرا أن يقضى معظم النهار فى

العمــل وســط الحســابات والحديث مع الزبائن فكان بروخر يستيقظ مبكرا جدا لكى يجد وقتا يقضيه فى الصلاة والتأمل فى الكنيسة، وفى المســاء كــان يســتغرق فى قراءة الكتاب المقدس وسير الآباء. أن معــرفة بروخــر بالأســفار المقدسة ألهمته رؤية ما وراء هذا العالم والشــوق إلــى الأبديات. وكان لبروخر تأثير قوى على رفاقه فكان يدعوهم، ومعظمهم من أبناء التجار فى الحى، وفى أثناء ليالى الشتاء الطويلة كان يشرح لهم أجزاء من الكتاب المقدس ويقص عليهم حياة القديسين لاسيما آباء الصحراء. أن الصحارى فى روسيا تختلف عن صــحارى مصــر، فهى ليست رملية مفتوحة واسعة بل هى غابات شاســعة حيــث يبــنى الرهبان لهم أكواخا بعيدة عن الدنيا... وفى الهــدوء والســكون يمارسون حياة الصلاة والعمل وبعد هذا ظهرت بعض الأديرة التى ازدحمت بالرهبان.

احتضــن بروخــر فى أعماق قلبه فكرة أن يكون راهبا فى تلك الغابــات، فقــرر أن يبدأ برحلة إلى كييف التى تسمى أم بلاد روسيا وهــى مشهورة بكنائسها واديرتها... وذلك مع خمسة من أصدقائه وهــناك أخذ مشورة أن يترهب فى صروف الكائنة على حدود وطنه كيرسك. وبعد عودته أخبر أمه بكل شئ فلم تعترض على رغبة قلبه بل على العكس باركتها واعطته صليبا نحاسيا -كانت الأسرة تتوارثه- وقد لبسه بروخر طول حياته. ويوم الرحيل صمم صديقان ممن ذهبوا

معــه إلى كيف أن يرافقاه... وحمل كل واحد منهم بعض المهمات وراء ظهــره وعصاه فى يده وسار الثلاثة على الأقدام عبر الطريق إلى صاروف.

ديــر صاروف

إن الهضــبة التى بنى عليها دير صاروف محاطة بنهرى ساتس وساروفسكي. وكانت فى الماضى قلعة روسية مبنية فى أرض جرداء بــلا ســكان كموقع خارجي لمنحدرات شاسعة محيطة به. وفى أثناء غــارة التتار سقطت القلعة بيد العدو وجعلوها قلعة للامير خان... والتنقيــب الذى جرى فيما بعد اظهر عظاما، واسلحة، (سهام ورماح وسيوف ودروع وملابس حديدية) لقد شغل التتار هذه القلعة قرنا من الزمن، وبعد هزيمتهم هجرت القلعة وتركت لعوامل هدم الزمن... فنمت غابة كثيفة فوق الموقع تمرح فيها وحوش مفترسة واطلق عليها الأهالى اسم القلعة القديمة نسبة إلى تاريخها القديم.

ظلــت القلعة القديمة مهجورة لمدة ٣٠٠ سنة إلى أن جاءها ذات يوم أحد الرهبان المتوحدين ليسكنها فيها. وكان من وقت لآخر يذهب إلــى القرية المجاورة ليعظ بالإنجيل للفلاحين. وانتشرت اشاعة بين الأهــالى عن وجود كنز مخفي، مدفون فى أرض القلعة القديمة، لكن الحفــر الــذى تم فى ذاك الوقت لم يسفر عن شئ سوى ثلاثة صلبان

مطمـورة٠٠٠ وقـد بدأت حياة جديدة فى القلعة القديمة قرب نهاية القـرن السـابع عشر حينما التفت مجموعة من الرهبان حول الأب يوحنا المتوحد الذى صار لهم مدبرا٠٠٠

والقـانون المعطـى للرهـبان كان بسيطا وصارما. ونفس نظام جماعـات المسيحيين فى القرن الأول: لا يسمح للرهبان بملكية شئ خـاص، وهم يكتسبون معيشتهم من عمل اليدين٠٠٠ فكانوا يشتغلون فـى الغابة والحقل، يقطعون الأخشاب ويحرثون الأرض، ويزرعون القمـح، ويدرسون السنابل، يشغلون ماكينة الطحين. وكانوا يشتغلون أيضـا بالنجارة فيبنون القلالى الخشبية ويصنعون الأدوات البسيطة. هـذا إلـى جانب أعمال النسيج وصناعة الأحذية. وفى الشتاء كانوا يلبسون ملابس من صوف الغنم، وفى الصيف ملابس من كتان خام. وكان الأب يعمل مع الأخوة مظهرا لهم مثال الاتضاع المسيحى وقد إزدادت شـهرة الدير وصار معروفا عند البلاد المجاورة، وقد عرف الدير بنسكياته وعطفه على الفقراء٠٠٠ ففى المجاعة التى حدثت سنة ١٧٧٥ فتح الأب كل مخازن الدير، وشارك الفقراء فى قمح الدير وقد بلـغ عـدد الذين يترددون على الدير يوميا لأخذ القمح أكثر من ألف شخص.

وصول القديس إلى الدير ...

وفـــى عيد السيدة العذراء (٢٠ نوفمبر سنة ١٧٧٩) كانت سهرة صـــلاة فى الدير عندما قرع بروخر باب الدير، وكان الريف الساحر بعزلـــته وســـكونه قد سبى قلب الشاب الصغير وهو فى طريقه إلى هـــناك. فاستقبله الأب باخوميوس (الرئيس الثالث لدير صاروف منذ انشـــائه)، استقبله بكل فرح، فقد كان يعرف أبوى بروخر إذ كان هو نفســـه من عائلة أحد التجار فى كيرسك، وكان مسرورا عندما سمع برغـــبة الشاب فى الحياة الرهبانية. كان بروخر ابن ١٩ سنة، طويلا قويا تبدو عليه ملامح الذكاء وخفة الروح، عيناه الزرقاواتان تعكسان نقاوة نفسه... وكانت مسحة الجمال الروحى تكسو ملامحه الدقيقة.

وفـــى أثـــناء ســـنوات التمرين الأولى واختبار إحتماله الأخلاقى والـــبدنى مر فى اختبارات صعبة، لأنه كان قد أعطى أعمالا كثيرة: فقـــد كـــان خـــبازا، ونجارا، وصانع قلالى، وكان يرسل إلى الغابة ويقضـــى أياما طويلة فى قطع الأشجار. ورغم كل هذا لم يترك عنه الصـــلاة ابـــدا، سواء فى الدير أم خارجه أم فى الكنيسة. إسم يسوع دوامـــا فـــى قلـــبه وعلـــى شفتيه "يا ربى يسوع المسيح أرحمنى أنا الخاطـــئ" كانـــت هـــذه الصلاة المستمرة كنبع مياه حية، تنعش نفسه وتملأها بالفرح.

كتب لبعضهم فيما بعد عن هذه السنين: "لو كنت رأيتنى فى سنى الإختبار الأولى... كم كنت ممتلئا من الفرح آنذاك... عندما كان الرهبان يعودون من عملهم اليومى، مرهقين ومتعبين جدا لدرجة أن لا ترتل صلوات المساء فى الكنيسة وقت الخدمة، كنت أحيانا أبدأ بلحن جميل مبهج فكان هذا كافيا لطرح أتعابهم فيبدأون فى الترتيل بنشاط وحيوية وقلب طيب مسرور... أن المرح ليس خطية، أننى متأكد من هذا الشعور، حتى فى الكنيسة... لأن الله يريد كل إنسان أن يكون فرح القلب " وقال أيضا: " فلنخف من اليأس قبل كل شئ آخر فى الدنيا ".

وفى الكنيسة كان دائما اول الحاضرين وآخر المغادرين. رسموه قارئا وعينوه قندلفت[1] الكنيسة، وفى أوقات فراغه استمر فى دراسة الأسفار المقدسة وكتابات اللاهوتيين. قال: "الكلمة الإلهية هى الزاد الذى تتقوت به النفس العطشانة لله" وقد تعود أن يعطى للنفس زادها (أى القراءة الروحية) وهو واقف منتصب أمام الأيقونات كما وضع صلاة وهو مستغرق بإنتباه لإستيعاب كلمة الله. وتعود أن يقول للمبتدئين الصغار: "إن روح الراهب اليقظ تشبه الحارس الذى من فوق البرج العالى يراقب أورشليم قلبه الداخلى" على أنه لم يحثهم

---

(١) أى المسئول عن إضاءة القناديل والعناية بها إلى جانب حراسة الكنيسة عموما وخدمتها.

علـى الإطلاق أن يسهروا سهرا زائدا أو يصوموا فوق الطاقة "لأن البـدن" كما كان يقول "يجب أن يكون صديقا ومعينا للنفس وإلا ربما يحـدث أنه عندما يضعف الجسم تتعب النفس أيضا معه" وقال أيضا "عندما تستيقظ فى الصباح بعد تلاوتك الصلوات إكنس قلايتك ونظفها جيدا، وبعد ذلك إشرب مشروبا ساخنا لتدفئ نفسك وجسدك، وما تفعله بعـد ذلـك طوال يومك افعله بحرص وبثان وصبر. وهى فضيلة لا تكتسـب بسـهولة، إنها ليست من الفضائل التى تنالها دفعة واحدة" وقـال أيضا "إن العمل البدني، وقراءة الأسفار المقدسة يعطيان عقل الإنسـان وجسـمه طهارة. كان كتابه المفضل هو كتاب القديس مار اسحق (وهو أب ناسك من القرن السابع)، وأيضا الفيلوكاليا بتداريب صلاة الهذيذ بترديد إسم يسوع الدائم فى القلب.

السيدة العذراء تشفيه من مرض خطير . . .

رغـم عطف القديس وشفقته على الآخرين كان قاسيا على نفسه، ويشـتغل بكـل طاقـته . . . وهكذا اضمحلت صحته بعد سنتين من وصـوله إلى الدير. لقد أصيب بمرض الاستسقاء لمدة ثلاث سنوات وهـو متألم واخيرا بدت حالته ميئوسا منها. رفض مساعدة الأطباء وطلـب فقـط أن يعطى له التناول المقدس، فاقام أب الدير الذى كان يحـبه جدا قداسا وصلى الرهبان، ولدهشة الجميع سرعان ما استعاد

الشاب صحته. وتقول القصص المتناقلة أنه غفى قليلا وهو بين النوم واليقظة، فرأى ملكة السماء مريم العذراء المملوءة مجدا تدخل قلايته وحولهـــا الملائكة ويرافقها الرسولان يوحنا وبطرس. فالتفتت إليهما وأشارت إلى المتوجع وفاهت بكلمات عجيبة: أنه من جنسنا وبعكاز فـــي يدها لمست جانب الراهب، فانفتحت فيه فتحه، والماء الذى كان يملأ جسمه قد انسكب خارجا، وقيل أنه بعدما كبر كان يكشف العلامة التى ظلت باقية فى جنبه.

سيرافيم الراهب، الشماس، الراهب...

عـــندما بلغ بروخر سن ٢٨ سنة سمح له بأن ينذر نذور الرهبنة وبعـــد فترة وجيزة من اللحظة المباركة المقدسة من الحياة، طلب منه أن يعود إلى بلده مرة أخرى ليجمع التبراعات لبناء مقصورة صلاة. لم يستطيع أن يرى أمه مرة أخرى لأنها كانت قد تنيحت، ولكن أخاه الـــذى أصـــبح الوريث الوحيد لعائلة موشنن أعطاه مبلغا كبيرا يكفى لبـــناء كنيســـة رائعة عند موقع القلاية التى حدثت فيها المعجزة وفى ذكرى هذا الشفاء بنى ملحقا آخر للاستشفاء وقد بنى القديس سيرافيم بنفســـه مذبـــح الكنيســـة وأجـــزاء أخرى. وفى يوم استلامه الشكل الرهـــبانى، أعطـــى إسم سيرافيم وهو اسم احدى المراتب الملائكية، ومعـــناه باللغة العبرية "الملتهب نارا" إنها تعنى الطبيعة الملتهبة التى

كانـت فى نفس بروخر ... ثم رسم شماسا فخدم فى الكنيسة بغيرة متزايدة. ملائكة وقديسون رآهم الأب سيرافيم يقدسون بصورة غير منظورة أثناء القداس. وفى يوم خميس العهد نال شرف رؤية المسيح ذاته وهو داخل الكنيسة وترافقه القوات السمائية لقد بارك مجمع الرهبان، والشماس سيرافيم بوجه خاص. وبقى سيرافيم بلا حركة لمدة ثلاث ساعات كما لو كان مصعوقا بصاعقة. لقد حذره رؤساؤه مرات عديدة من خطورة الرؤى، وبدأ الرهبان ينظرون إليه بعين الشك ترى هل يتحول الأب سيرافيم المرح، والشاب الأليف المعشر، قاطع الأخشاب القوى، الإنسان الذكى، والعامل الماهر، إلى إنسان روحانى متصوف. على أية حال لم يعد الأب سيرافيم مبتدئا من الناحية الروحية، لقد عرف جيدا أن الإتضاع هو أساس كل نمو، وإنه يعرف تماما أنه بقدر اقتراب الإنسان إلى الله، بقدر إحساسه بعدم الإستحقاق، وبقدر إحساس الإنسان بالجوع إلى الله أكثر.

قد سجل الدير معجزة أخرى فى سجلاته حدثت أيضا على يد الأب سيرافيم حينما كان شماسا: كان هناك جوع فى الأرض، وفى أحد الأيام أرسل الشماس سيرافيم إلى مخزن الغلال بالدير ليجمع كل ما تبقى من حبوب. وإسم يسوع لا يفارق شفتيه جذب الشماس الصغير مزلاج الباب ولشدة دهشته وجد أن المخزن ممتلئ قمحا. وأضاف التقرير بأنه منذ ذلك اليوم والدير لا ينقصه مؤونة ما ...

كـــان رئيس الدير الأب باخوميوس يأخذ معه القديس سيرافيم فى زيارتـــه الرعوية وجولاته فى البلدان المجاورة، وفى أحد الأيام زار مجمعـــا صـــغيرا للراهبات فى قرية ديفيفو (تبعد حوالى ٨ ميل من صـــاروف) وكانت الأم الرئيسة الكسندرا راقدة على فراش مرضها. وكان للراهبة العجوز حديث طويل مع اب صاروف فكانت تترجاه أن لا يهمل الراهبات اللائى معها، وأعطته أيضا مبلغا من المال للصرف علـــى معيشـــتهن مـــن بعدها. وقد وعد الأب باخوميوس انه طوال اســـتمتاعه بالصـــحة فهـــو سيعتنى بهن وبعد ذلك سيكون على الأب سيرافيم أن يتعهدهن من بعده حينئذ وجهت الأم الكسندرا توسلها إلى الأب سيرافيم الذى وعدها أمام الله أنه سيعمل الواجب... وبعد فترة وجـــيزة علـــم الرهبان أن الأم الرئيسة قد تنيحت، وأن (المتوحدات) أصـــبحهن فـــى عهـــدة دير صاروف. وبعد أربعة سنوات تنيح الأب باخوميوس تاركا العناية بمجمع ديفيفو للأب سيرافيم.

فى ذلك الوقت رسم الأب سيرافيم كاهنا وأخذ لقب الراهب القس، وفـــى الســـنة الأولى لرسامته كاهنا كان يعمل قداسا كل يوم واعتاد التناول من الجسد المقدس والدم الكريم وأصبح له التناول مصدرا لا ينضـــب مـــن الفرح والتعزية والقوة الروحية. بعد ذلك لم يكف عن تشـــجيع المؤمنين على الإكثار من التناول حاثا الكهنة أن يسهلوا لهم اخـــذ الأسرار المقدسة وقال: "عظيمة هى النعمة الماخوذة عن طريق

الأسرار المقدسة لأن لها قوة أن تنقى وتجدد كل إنسان حتى ولو كانت خطيته عظيمة".

بعد وفاة الأب باخوميوس الذى أحبه الأب سيرافيم حبا بنويا خالصا، استأذن القديس من الأب الرئيس الجديد (الأب إشعياء) بأن يعتزل فى الغابة لكى يعيش حياة التوحد...

المتوحد...

فى عشية عيد العذراء أيضا (٢٠ نوفمبر ١٧٩٤) وبعد ١٦ سنة من وصوله الدير، خرج الأب سيرافيم لخبرة روحية جديدة، خرج إلى كوخ صغير كان قد ابتناه لنفسه فى الغابة حينما كان يعمل فى تقطيع الخشب هناك. وكان مرض قدميه هو العقبة فى حصوله على اذن التوحد بسهولة، ولكنه لم يكن متطلعا إلى الراحة. ورغبته فى الوحدة هى لكى يكون بمفرده مع الله. لقد عبر عن مشاعره حين خروجه للوحدة بقوله: "كنت كأنى محمولا بقوة فائقة، كما لو لم أكن بعد أعيش على الأرض، كانت نفسى ممتلئة تماما من الفرح". اعتقد القديس سيرافيم ان صحراء سيلفان الشاسعة ستمكن روحه من أن تصعد بأكثر حرية إلى خالقها. كانت غابات صروف تضم متوحدين آخرين هنا وهناك... وكان بين الواحد ورفيقه ميل أو أكثر وكان بعضهم يعرف الأب سيرافيم، فكانت صداقتهم ونصائحهم عونا روحيا

ومعنويا للقديس فى بداية توحده وكان مكان توحده كوخا خشبيا بسيطا يقع تحت شجرة صنوبر ضخمة: الشاطئ المنحدر أسفل نهر ساروفكا الصـــغير، وكـــأن أثاثـــه عـــبارة عن منضدة، وكتلة خشبية تستعمل ككرســـى، وايقونة فى الركن وبلا سرير. إن تفاصيل هذه الفترة من حـــياته لـــم تكشف إلا فيما بعد، حينما تحدث بها جيرانه المتوحدون، والأب ســـيرافيم نفسه لاصدقائه المقربين: كان يقرأ الإنجيل كل يوم، لـــم ينفصل اطلاقا عن الكتاب المقدس الذى كان يحمله معه بإستمرار فـــى كيس، قال: "إن عقل الإنسان عليه أن يسبح (يعوم) فى الأسفار الإلهـــية... الروح لا تنتعش وحدها بكلمة الله بل حتى الجسد نفسه يـــزهو وينتعش بها" ولكى يحيا حياة ربنا يسوع المسيح بالروح على الأرض أطلـــق أسماء من الكتاب المقدس على الأماكن التى أختارها للصلاة: كانت له الناصرة التى كان يفرح عندها بترتيل تحية الملاك للســـيدة العذراء، وكانت هناك مغارة سماها بيت لحم كان يذهب إليها ليعـــبد الطفـــل الإلهـــى... كـــان يصعد إلى قمة أحد الجبال ليقرأ الموعظـــة على الجبل وكان هناك واد بجوار مجرى مائى كان يلذ له أن يتأمل الرب يسوع وهو يتحدث مع تلاميذه. كان له جبل حرمون، وجثســـيمانى، والجلجـــثة... وهكذا اقتربت له فلسطين البعيدة... وبدت حياة المخلص حقيقة واقعة مجسمة أمامه.

ومـــاذا كان يفعل المتوحد أيضا ؟ كان يصلى، كان يشتغل حسب قـــانون القديـــس باخوميوس الذى انتشر فى القرن الرابع. كان الأب ســـيرافيم ينهض فى منتصف الليل ليبدأ اليوم بصلوات باكر، تتوالى بعدهـــا مزامير السواعى حتى صلوات الستار وقبل الذهاب إلى النوم كـــان يصلى صلوات المساء الطويلة مصحوبة بسجدات ومطانيات لا حصـــر لها ٠٠٠ كان يفلح فى حديقة للخضروات، وكان يربى نحلا، ويعمل كقاطع أخشاب. وفى أيام الآحاد والأعياد كان يذهب إلى كنيسة الدير للتناول من الأسرار الإلهية. وعندما ينتهى القداس كان الرهبان يمســـكون بـــه بعـــض الوقـــت معهم لأنه كان متحدثا بارعا، وكانت تعبيراته خفيفة الروح تبعث البهجة للقلب. وهذه بعض النصائح التى أعطاها الأب سيرافيم فى ذلك الوقت:

✝ أن اردت أن ترتب منازل سكنى النفس الداخلية، عليك أن تعد الوســـائل اللازمـــة حتى يمكن للمهندس السمائى أن يبدأ عمله، لأن يســـوع هـــو باب البيت (يو١٠: ٧) وهو بانيه لان الكل هو الله، وهو نفســـه الســـاكن فـــيه، وحارسه. لكى ما يكون المسكن منيرا بالنور السماوى يجب أن تكون هناك نوافذ التى هى حواسنا الخمسة.٠

✝ عـــندما تصـــلى أغلـــق عينـــيك دقيقة وحاول أن تركز قواك الروحية، وأن تعبت أرفع عينيك إلى الأيقونة أو إلى شمعة مضيئة.

التركيز فى الصلاة بهذه الطريقة سوف يجدث فى القلب دفئا روحيا آتيا من المسيح نفسه ويملأ كل كيان الإنسان بالسلام والفرح.

✝ بحسب درجة إضطرام قلبك بهذه الطريقة باسم يسوع المحبوب سيمتلئ قلبك بمحبته وسيصبح اسم يسوع المسيح نبع فرح وسلام لك.

✝ الله نار يضرم القلب كلهيب، فإذا شعرنا بالبرودة فى قلوبنا فهذا يعنى أن العدو اقترب منا لأن الشيطان برودة، وعلينا حينئذ أن نصلى إلى الرب حتى يأتى ويلقى ناره فى قلوبنا للمحبة نحوه ونحو القريب لأن إزاء وجه الله الكلى الدفء يهرب الشيطان وتنقشع برودته من القلب.

✝ إذا كنت لا تعرف الله يستحيل عليك أن تحبه ولن يمكنك أن تحبه إلا إذا رأيته. ولكن لا تستطيع أن تراه إلا إذا عرفته.

✝ بمداومة حفظ القلب تتولد فيه النقاوة التى بها يرى الله. حسب شهادة الرب "طوبى لانقياء القلب لأنهم يعاينون الله".

✝ حينما ينشغل الإنسان داخليا بالتأمل فى النور الأبدى يكون عقله نقيا لا يشوبه تصورات الأشياء المحسوسة إذ يكون مبتلعا بتأمل ذلك الجمال الفائق غير المخلوق وينسى كل متعلقات الحواس ولا يرغب فى أن يتطلع لشئ حتى إلى نفسه. ويتوق أن يختفى عن كل الأنظار حتى لا يحرم من الله.

✝ فى كل شئ يجب أن نشكر الله ونسلم ذواتنا لإرادته وعلينا أن نقــدم له كــل أفكارنا وحديثنا وأعمالنا محاولين أن نستخدم كل شئ لمسرته الصالحة.

فى محبة القريب:

✝ كم يلزمنا الرفق والحنان فى معاملاتنا مع القريب. ولنحرص أن تكون كافة معاملاتنا خالية من العثرة والغضب.

✝ إن مجــرد الإشــاحة بالوجــه بعيدا عن إنسان ما، قد تؤذى مشــاعره ويكــون هذا التصرف السى من التعنيف والتوبيخ، وتكون حينئذ كمن قذفته بحجر على قلبه.

✝ كلــم قريبك بالكلام البناء، وعامله بنقاء بلا التواء، ولتكن لنا النظرة الواحد للجميع بلا إستثناء، وإلا ستضيع حياتنا الأبدية هباء.

✝ ليــت قلبــنا يضرم بنار، وحياتنا تضئ كنور أمام الرب الإله كشمعة موقدة أمام أيقونته المقدسة.

✝ أن العيون التى أفاضت دموع الرحمة والشفقة قد استؤهلت أن تشرق عليها شمس البر لتضئ لها الحياة.

✝ إذا أضــعفنا الجسد وأنهكناه لدرجة انحطاط الروح أيضا فإن ذلــك يعتــبر عدم الفراز ورعونة حتي ولو كنا نسعى للحصول على الفضيلة.

وكــان الأب ســيرافيم عــندما يعود إلى كوخه بالصحراء يحمل نصيبه من الخبز للأسبوع كله.

مصادقة القديس للوحوش:

فى الصحراء يتحول الإنسان إلى شكل كونى، وإذ يواجه الجوهر فهــو يعمل من أجل نقاوته الشخصية وتجليه. وفى نفس الوقت يحمل أثقــال وخطايــا البشــر وينتظر التحرر كما يقول معلمنا بولس "لإن الخلــيقة نفسها أيضا ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فاننــا نعلــم أن كــل الخليقة تئن وتتمخض معا إلى الآن (رو٨: ٢١،٢٢).

هــذا هو واجب المتوحد، وهو لا يعمل باطلا. الحيوانات تفهمه. ففى سوريا ومصر كان لأباء الصحراء أصدقاء من السباع والضباع والحــيات كــالقديس مكاريوس الاسكندرى والقديس جيروم والقديس اولاغ السبعى والأنبا برسوم العريان...

أما القديس سيرافيم فكان له دب صار أليفا مثل كلب، وكان ينام تحت رجليه ويطيع أوامره. وكان الأب سيرافيم يخرج من قلايته بعد صلوات باكر فيتجمع حوله سكان الغابة: دببة وذئاب وثعالب وأرانب برية وسحالى وحيات وطيور بلا عدد، أتوا ليتناولوا طعام افطارهم. ســأله شــاهد عــيان مرة: "كيف تدبر خبزا لكل هؤلاء" كان يجيب

باستغراب "كيف اتدبر ... لا أعرف، ولكن الله يعرف ... وعلى العموم يوجد دائما ما يكفى!!".

سجل الذى كتب سيرة القديس قصة شاهدين -احدهما الراهبة ماترونا- رأيا القديس سيرافيم وفى صحبته دب كبير. ففى أحد الأيام بينما كانت ماترونا فى طريقها بالقرب من كوخ القديس رأت الشيخ جالسا على كتلة من الخشب يطعم دبا كبيرا، وكان هذا المنظر باعثا لها أن تجرى بعيدا، لكن القديس سيرافيم أبتسم حين شاهد فزعها وضرب الدب ضربة خفيفة فاختفى فى الحال وسط الغابة واقتربت الراهبة مطمئنة، فدعاها القديس أن تأخذ مكانا بجانبه على كتلة الخشب وما كان أعظم فزعها حينما رأت الدب يظهر ثانية. لقد أتى واستلقى تحت قدمى القديس سيرافيم، فقال لها القديس لا تخافى، أنه لن يؤذيك أبدا! ... لعلك تذكرين قصة القديس جيروم حينما روض أسدا فى الصحراء. وسوف ترين هنا أيضا أن الوحوش تستطيع أن تكون وديعة مطيعة... ودفع القديس الراهبة أن تعطى قطعة من الخبز للدب، وبينما كانت ماترونا تصارع خوفها التفتت إلى القديس سيرافيم واندهشت إذ وجدت وجهه يلمع بنور سماوى كوجه ملاك، وحوله هالة من السلام والصفاء والفرح. وحينئذ أعطت قطعة الخبز للدب الذى تناولها منها كما لو كان حملا صغيرا. وكما أوصاها القديس، لم تقص الأخت ماترونا هذه القصة إلا بعد نياحته.

ويخـــبر كـــتاب فالنتيـــن عن حادثة أخرى لراهبة رأت الدب مع القديس، فأمره أن يذهب ويبحث عن شهد فى الغابة٠٠٠ فأختفى الدب ثـــم عاد ومعه أقراص من عسل النحل، فأعطاه القديس للراهبة٠٠٠ وتعلق الكاتبة بأن جو القداسة الذى عاش فيه الأب سيرافيم له سلطان أن يغير طبيعة الأشياء، والحيوانات المفترسة أصبحت أليفة كما كان الحال قبل السقوط.

الألف ليلة صلاة:

حياة الوحدة تدخل الراهب فى مخاطر لا يمكنه أن يفلت منها إلا بالصـــلاة و التداريب النسكية. أثناء هذه السنين من العزلة التامة كان الأب سيرافيم يحس أحيانا أن نفسه ممسوكة بالضيق. وفى وقت كانت تفيض عليه كآبة وغم طوال ليالى الشتاء الطويلة، ومرات أخرى يفعم قلبه بحزن يعذب قلبه، لا يعرف له مصدر٠٠٠ أثناء ساعات الصلب هـــذه كان يشعر أنه متروك من الله كلية٠٠٠ والواقع أنها محاربات الشيطان الذى كان يحاول أن يملك نفسه.

إن العمـــل هكـــذا فى سلام وحب لتجلى الكون وتقديسه هو عمل ضـــد خطـــط الشيطان. وقبل أن يبدأ ربنا يسوع رسالته لفداء جنس البشـــر، واجـــه العـــدو فى الصحراء. وكذلك كل آباء الصحراء كان

عليهم أن يتحملوا كل هجماته... والقديس سيرلفيم لم يكن ليستثنى، فقد كانت محارباته مع أرواح الشر طويلة ومؤلمة.

سأله موتوفيلوف مرة : هل الشيطان موجود فعلا ؟ فأجابه القديس ساخرا : علموك أيه يا إبنى فى المدارس اللى رحتها... طبعا موجود. متكلما عن خبرة -وكيف حالهم الأن ؟- انهم أدنياء ... فى البداية حاولت الشياطين أن تخيفه خارج الغابة. ثم أغرقوا ذهنه بأفكار الشكوك والتجاديف. فكان يضاعف صلواته وأصوامه كى يصد هذه الهجمات عنه، عاملا بقول الرب: إن الصوم والصلاة هما اللذان يخرجان الشياطين (مر٩: ٢٩). ومثل الصليب الذى أعطته إياه أمه، هكذا ربط فى ظهره صليبا آخر من حديد لأنه قال: من اختار الصحراء عليه أن يشعر فى نفسه أنه مصلوب بإستمرار... وكان الأب سيرافيم يراعى القانون الرهبانى بدقة، ومزامير السواعى من باكر إلى الستار، ولكى يقضى الليل كله فى الصلاة اصلح له صخرة للسجود عليها فى قلب الصحراء مرددا بلا توقف الكلمات التى وضعها يسوع ذاته على فم العشار "اللهم ارحمنى أنا الخاطئ" (لو١٨: ٣٣) وكان يواصل هذه الصلاة فى وقت النهار أيضا مستخدما ركنا داخليا فى كوخه كان قد أغلقه كي لا يزعجه أى داع طائش... ولمدة ألف ليلة وألف يوم عاش كالقديسين العموديين (القديس سمعان العمودى، والقديس لوقا العمودى) متضرعا إلى الرب، نحو نهاية هذه

الفـــترة خمدت قوى الشر ونزل سلام إلهى فى نفس المتوحد. وطوال هـــذه الـــثلاث سنوات لم يكن يرى فى الدير، وكان الرهبان يتعجبون احـــيانا كـــيف يتدبر بالنسبة للطعام ؟ وقد كشف السر فيما بعد عندما أخـــبر الأب ســـيرافيم أختا من دير ديفيفو عن نبات صغير ينمو فى الغابات، وقال لها أنه جيد للأكل وأنه كان غذاءه لفترة ثلاث سنوات، وكـــان أثناءها يجففه ويحفظه لفصل الشتاء ويأكله طازجا صيفا. أن صلواته واصوامه أجبرت قوات الشر على الهزيمة وجذبت إليه نعمة الله.

فى أيدى اللصوص...

حركت قوات الشر ثلاثة من الفلاحين ليبحثوا عن المال فى مكان سكن المتوحد. وأمام عنفهم كان يمكن للشخ أن يقاوم مدافعا عن نفسه وكـــان فـــى أوج صـــحته البدنية ولم يتعد الخمسين وكانت بلطته فى متـــناول يده. ولكنه فكر فى المسيح الذى لم يقاوم الشر، فترك البلطة وكـــتف يديـــه حول صدره وقال بهدوء: افعلوا ما أتيتم لتفعلوه... ولكـــن واحـــد مـــن الأشقياء تناول البلطة وضرب بها المتوحد على رأســـه، فسقط مغشيا عليه فركلوه وربطوه بحبل وتركوه مكفيا على وجهـــه لـــيموت... ثم عبث اللصوص فى الكوخ ليبحثوا عن الكنز المخفى فكان وكل ما وجدوه هو بضع ثمار من البطاطس موضوعة

فـــى ركن، وفجاة أخذتهم رعدة مما فعلوا فهربوا. ولما قبض عليهم فيما بعد أصر الأب سيرافيم أن لا يعاقبوا٠٠٠ ومغفرة الخطايا دائما بالنسبة للروس هى محك المسيحية الحقيقية، ولكن على أية حال أعلن الله دينونته على هؤلاء إذ شبت نار فى القرية التى كانوا يسكنون فيها وحرقت بيوتهم واتلفت كل ممتلكاتهم.

وبعد فترة وجيزة، افاق الأب وحاول أن يفك قيوده، وظل يزحف إلى أن وصل إلى الدير. كان يبدو أن الأب سيرافيم مشرفا على موت ٠٠٠ ولـم يسـتطع أن يـنام أو يأكل وسط آلام فظيعة، وقد شخص الأطـباء الحالــة بأنهــا كسر فى الجمجمة، وكسر فى الضلوع، مع جـروح وكدمات عديدة، وبينما هم يهمسون مع بعضهم حول سرير القديـس بالتعبيرات اللاتينية، أغمض الأب سيرافيم عينيه وغفى٠٠٠ ومــرة أخــرى، جاءت أم الله المملوءة مجدا، مرتدية ثوبها الملوكى، ودخلت قلايته يصاحبها أيضا الرسولان بطرس ويوحنا ونظرت إلى الأطباء وقالت:

ماذا يصنعون ؟٠٠٠ أنه من جنسنا٠٠٠ أنه منا !!

بعدهـــا فـــتح القديس عينيه، فوجدها قد ذهبت٠٠٠ ولكنه تشجع وإمـــتلأ قوة، وقام من على فراش مرضه، ورفض مساعدة الأطباء، وقام ومشى بضع خطواتفى حجرته، وعند المساء كان قادرا أن يأكل قليلا من الطعام!

عودته إلى الغابة

استعاد الأب سيرافيم صحته، وبعد بضعة شهور رجع إلى الغابة. لــم يعد قاطع الأخشاب القوى الذى كان معروفا بقوته الجسدية، لكنه بعد الخمسين أصبح شيخا محطما باطراف كسيحة تحدث ألما، متوكئا علــى عكــازه وعلى بلطته. ولكى يستعيد سلامه الداخلى الذى افتقده بسبب الحادث، فرض الأب سيرافيم على نفسه الصمت الكامل وكان يقــول: "لايوجــد تدريب روحى يمكن مقارنته بالصمت للراغبين فى الوصــول إلــى الســلام الداخلى". فرغم تحذير الرئيس أن يعود إلى السبرية مــرة أخــرى، عــاد إلى كوخه بالغابة... لقد كانت إحدى الجهــادات النســكية فى إنتظاره: لقد دخل فى السكوت التام. يصلى بــدون كلمــات وهــذه قمة صلوات الهذيذ... كتب مار إسحق "إن صــمت الهادئ صلاة لأن أفكاره ذاتها هى نبضات إلهية، وحركات العقــل الــنقى هى أصوات ساكنة ترتل سريا مزامير لغير المنظور" ... أن الروح القدس يملك على مثل هذا الإنسان، وهو الذى يصلى فــى ســكون قلــبه. وبعدما استغرق الأب سيرافيم فى هذا النوع من الصــلة العميقة، لم يعد يتكلم مع أى شخص، لم يعد يذهب إلى الدير ولا حتى إلى الكنيسة. وإذا صادف شخصا فى الغابة كان يسجد على الأرض ولا يــرفع رأســه ولا يقوم إلا بعد إنصراف ذلك الشخص. أحضروا له طعامه مرة من الدير ووضعوه على عتبة بابه ولكنهم بعد

أسبوع وجدوا الطعام كما هو لم يمس لقد اصبح الدير مقلقا، فالأب الجديد رجل عنيف ذو أفق ضيق يسمع لدسائس الرهبان واسمه نيفونت، وهو غريب من الروحيات... أراد أن يجبره على ترك وحدته، فأمره أن يحضر القداس الإلهى كل يوم أحد... وقال أنه إذا كانت قدماه الكسيحتان لا تقدران أن تحملاه الستة كيلومترات (هى المسافة بين الكوخ والدير) فليعد ويعيش داخل أسوار الدير. لكن الأب سيرافيم كان قد تقدم فى حياة البرية، ولم يعد راهبا ديريا. وقد غير ملابسه السوداء بملابس بيضاء وفى قدمه قبقاب من لحاء الشجر كالفلاحين، وكان يقول متجنبا كل المصادمات: "الطاعة بالنسبة للراهب هى أولا وقبل كل شئ من أهم الفضائل" هكذا علم الأب سيرافيم وهكذا تصرف. ولكنه ظل ابنا مطيعا للكنيسة...

فقد عقد الرئيس مجمعا مع رهبانه وقرروا استدعاء الأب سيرافيم إلى الدير كإنذار نهائى، ودون أن ينطق بكلمة أطاع المتوحد وترك كوخه المحبب إليه وسط الغابة، حيث كان يعيش فيه متأملا ومصليا، وعاد إلى الدير، وبعد أن قابل الرئيس، أغلق على نفسه فى القلاية التى كانت معدة له ولمدة خمس سنوات من سنة ١٨١٠ .إلى سنة ١٨١٥ حبس نفسه فى قلايته صامتا. كانت القلاية مكانا ضيقا، فى مدخلها جذع شجرة منحوتة على شكل نعش، ولم يستطيع حتى

الراهـــب الــذى كان يحضر له الطعام أن يرى وجهه -وكان طعامه سلطانية بها فتة من خبز الشعير- لأنه كان يغطى وجهه بفوطة.

ماذا كان تدبيره فى سنوات حبسه هذه...؟ قراءة البشائر يوميا (إنجـيل مـتى يـوم الأثنيـن، مرقس الثلاثاء، لوقا الأربعاء، يوحنا الخمـيس وكانت خدمة الصلبوت ليوم الجمعة والسبت للرؤيا والأحد للقيامة وجميع القديسين) وكان يصلى، ورأى رؤى كثيرة... وذات مرة أصعد إلى السماء مثل القديس بولس الرسول ليرى المنازل التى يعدها الله لمحبيه.

ولكـن صـداعا مخـيفا بسبب قلة الحركة وقلة الهواء أجبره أن يصلى من أجل الحرية. فظهرت له مريم العذراء فى رؤيا وأمرته أن يفتح بابه للناس ويعود إلى الغابة...



٢- فى خدمة النفوس

القديس سيرافيم المرشد الروحى لصاروف

إن كلمـــة (ســتاردز) التى تطلق على القديس سيرافيم هى كلمة روســية بمعنى شيخ مدبر روحى، فهى لقب يطلق على الراهب الذى نــال مــن الــروح مواهــب الإفراز والحكمة والمشورة فى الكنيسة الشرقية.

ومــا أن انتشر الخبر أن الأب سيرافيم قد فتح باب قلايته، حتى هرعت جماهير الناس إلى صاروف لزيارة هذا الأب... ماذا كانوا يبصــرون؟ عجوزا نحيفا بملابس بيضاء، كل ما فيه نشف، بملامح دقــيقة صــارمة، وعيون زرقاء حلونة كانت له إبتسامة طفل، وكان يقابل زواره بفرح ويدعوهم: "يا بهجتى" ودائما يضيف تحية القيامة: المسيح قام.

لقــد عــاش فــى الدير منذ شبابه، وبعد ذلك توحد فى كوخ فى الغابة، وأخيرا كحابس فى قلايته الضيقة. ودارت الدنيا بكل تغيراتها: حكــام وثورات وحروب... لقد غزا نابليون روسيا فى ذلك الوقت. هل شعر بذلك...؟ يقول الناس إن صلاته انقذت البلاد... ماذا فيه يجذب الجماهير التى اتت بأعداد ضخمة إلى صاروف؟ ماذا تعلم فى

وحدتـــه لـــيكون مفيدا للمتألمين الكادحين فى الدنيا؟ هو نفسه يخبرنا ويقول:

إملأ قلبك سلاما ۰۰۰ وألوف حولك سيخلصون

لقد غلب الأب سيرافيم شهوات جسده، وصار ممتلئا بالروح، يشع بـــثمار الروح على كل من حوله: محبة، فرح، سلام،۰۰۰ التى تكلم عـــنها القديـــس بولس (غل٥: ٢٢) حيث الناس فى كل زمان ومن كل طبقات المجتمع فى شديد الحاجة إليها. والتى لا يمكن أن تعطيها أى إمكانيات أرضية ولا أحد من المعلمين الإجتماعيين أو النفسانيين.

كـــان يقرأ أفكار الناس ويشعر بمستقبلهم وبلطف يريهم طريقهم فـــى الحـــياة. شـــفى كل أنينهم الروحى والمادى. واعتبر اليأس هو الخطـــية الكـــبرى، أما أن يمتلئ القلب من المخاوف بدلا من إنتظار رحمة الله ففى هذا إبادة للحياة المسيحية.

لـــم يعظ أبدا، إنما كان هو ذاته مثالا، ونموذج حيا. وكان يقول بمزيج من الإتضاع والصفاء الطبيعى والسلطان الحازم الذى كان له:

من السهل أن تعظ عظات جميلة كمن يلقى
حجارة من القمة إلى أسفل الجبل، أما أن تحيا
بما تعظ به فهو من الصعوبة كمن يحمل حجارة
من أسفل الجبل ويصعد بها إلى أعلى القمة.

وكان أول من استقبلهم اثنان: رجل وزوجته أتيا ليأخذا بركته. أن السنين التى قضاها سيرافيم فى قلب الغابة لم تجعله غريبا عن الدنيا بـــل علـــى العكس عندما بدأ يعيش لله فقط قربه الحب الإلهى للناس، وعندما لم يعد يعيش بعد للعالم أتى إليه العالم بمتاعبه. أعطى القديس ســيرافيم موهبة خاصة هى فهم قلوب البشر. ورغما عن كونه صلبا قال لأناس ينتحبون على خطاياهم "على الإنسان أن يشفق على ذاته. علـــى الإنسان أن يتحمل ويتقبل اخطاءه ونقائصه كما يتقبل ويتحمل خطايا الآخرين".

"فى الحياة الروحية لا ينبغى أن نعمل شيئا فوق طاقتنا" هذه هى المشورة التى يعطيها لكل أحد. "اعط الروح الأشياء الخاصة بالروح، وللـــبدن الأشـــياء الخاصة بالبدن لكى يحمل البدن الروح عبر طريق الخلاص"... هكذا كان يعلم.

موهبة الكشف التى كانت عنده:

ذات يـــوم جـــاءت فتاتان لتستشيرا الشيخ، وكانت الفتاة الكبرى تشتاق إلى حياة التكريس ولكن نظرا لمعارضة والديها ذهبت لتستطلع رأى الشيخ، وأما الفتاة الصغرى فكانت مخطوبة. فوجه الشيخ كلامه للكبرى قائلا "إن حياة التكريس ليست للجميع، ستتزوجين وتكونين فى غاية السعادة" ودهشت الأخرى عند سماعها منه أن ترتيبات زواجها

سوف لا تتحقق وأنها ستأخذ الزى الرهبانى، فرجعت الأثنتان حزينتين تشعران بخيبة الأمل، ولكن نبوة الشيخ تحققت فاصبحت الكبرى زوجة سعيدة ودخلت الصغرى ديرا للراهبات.

قال له أحد الزوار بعد مشاهدة حوار بين الشيخ وأحد الشباب "إن النفس البشرية مفتوحة أمامك ككتاب تقراه" فاجاب القديس بإتضاع "أوه... لا... لا، إن قلوب البشر مفتوحة لله وحدة لأنها عمق لا قرار له". قال له الزائر "فكيف إذن يا أبتاه استطعت أن تخبر هذا الشاب بكل ما فعله دون أن تساله سؤالا واحدا ؟ " فقال القديس بعد فترة صمت "إننى لا أقول لأولئك الآتين إلى إلا ما يخبرلى به الله لأقوله لهم، وأول فكر يجئ لى أعتبره كرسالة من الله، أما أن حاولت الإجابة بنفسى فاننى أخطئ على الفور. وأضاف القديس: كالحديد فى النار هكذا أضع إرادتى بين يدى الله ولا اتكلم حتى أشعر أن الكلمة معطاة لى". بهذا شرح الأب سيرافيم بنفسه بصيرة النفس هذه، المعطاه له من قبل النعمة الإلهية.

مواهب الشفاء:

عندما بدأ القديس سيرافيم فى استقبال الناس فى قلايته وقد أتوا من أماكن بعيدة، كان يقدم لهم قطعا من البقسماط كان يحتفظ بها فى

قلايــته، واحــيانا كان يرشم الناس الآتين إليه بزيت القنديل المشتعل باستمرار أمام أيقونة والدة الإله.

وذات يوم - في سنة ١٨٢٢- حضر للأب سيرافيم رجل مريض إســمه ميخائــيل مانــتروف، كــان يعاني من آلام فظيعة في ساقيه وبصعوبة كان يستطيع الوقوف، وما أن رأى القديس سيرافيم خارجا من قلايته حتى ترك أيدي خدمه الذين كانوا يسندونه وسقط عند قدمي القديس راجيا الشفاء بتوسل، فتفرس فيه القديس بعينين نافذتين وسأله هــل تؤمــن بالله ؟ وعندما أجاب ميخائيل مانتروف بالإيجاب أخبره الأب أن الإيمان المسيحي أعطاه القوة ليحصل على كل شئ من الله، وإن آمن هو بثبات قاطع سيشفى حتما، وأمر الرجل أن تفك ضمادات ساقيه وسكب عليهما زيتا وأعطاه بعضا من البقسماط ليأكل. وقال له برقة: أنت أول من شفيته. وإذ أحس مانتروف أن العافية بدأت تعود إلــى ســاقيه فــورا قدم الشكر للأب على شفائه ولكن الأب لم يدعه يواصــل الكلام بقوله "ليس لي انا سيرافيم ينسب الشفاء بل لله وحده وهــو كلــي القدرة وهو الذي أعطاك الشفاء. وكان عرفان مانتروف بالجميل بلا حدود، فقد نذر الفقر ووزع ممتلكاته وعتق عبيده وأعطى نصيبا كبيرا من ممتلكاته لجماعة الراهبات في ديفيفو.

وبعد شفاء مانتروف توالت أشفية أخرى كثيرة في صاروف، فقد. أحضــروا إلــى الأب المرضى والمفلوجين والذين بهم أرواح نجسة

والصـــم والعمـــى. وهكذا رأينا الذين عليهم أرواح وجدوا أنفسهم قد عـــتقوا مـــن الشر. الأعمى استعاد بصره والأصم استعاد سمعه... اهـــتزت كـــل الـــبلاد المحيطة، أما الأب فلم ينسب هذه الاشفية إلى موهبـــته الخاصـــة بـــل بكل قوة ينسبها إلى إيمانه بالمسيح ووصيته المعطاة للكنيسة "اشفوا مرضى اخرجوا شياطين" (مت١٠: ٨).

وعـــندما راجعه بعض الرهبان أن الزيت الذى يستعمله للمرضى ليس زيتا اجريت عليه صلاة التقديس (مسحة المرضى) اجاب الأب: "نحـــن نقـــرأ عـــن الرسل أنهم كانوا يدهنون بزيت بإسم الرب فكان المرضـــى يـــبرأون، فمن نتبع إذن إن كنا لا نتبع الرسل ؟!". وكان الأب يعتـــبر الكهنوت الذى أخذه وظيفة مفردة بل هو دعوة تضم كل هـــبات المســـيح لكنيســـته ككل. وكان القديس سيرافيم يعتبر أن هذه المواهـــب هى مظاهر مختلفة لكهنوته، وكان يعرف أن له فى داخله القوة لإظهارها.

القديس سيرافيم أب الإعتراف

لم يكن الذين يعانون من أوجاع بدنية فقط هم الذين كانوا يذهبون إلـــى ســـاروف لمقابلة الأب سيرافيم بل أيضا الذين اصيبوا بأوجاع روحية معنوية. والناس دائما فى حاجة أن يتحرروا من الخطايا التى يحملونهـــا فـــى داخلهـــم. وكان من النادر أن يسمع -الأب سيرافيم اعترافا بنفسه وغالبا ما كان يرسل زائره المعترف للأب المعين لأخذ

إعـــترافات دير صاروف أو ديفيفو. ولكنه كان يقبل تائبين فعلا، كان يخترق قلوب البشر، وكان لا يهمه كيف نستخدم الرذائل أو الفضائل أو نسيء إستخدام الفضائل بل كان ينظر إلى الإنسان ككل فى سقطاته ونهضاته. قال واحد من المعترفين عليه "إن الأب تكلم عن كل حياتى كمـــا لو كانت مكشوفة أمامه". وكان يهمه أولا مشاعر الإتضاع فى قلـــب المعترف والندامة على الخطية... ولم يكن يدين أحدا، وبهذا الإتجاه نحو التائب حقق الحكمة الأرثوذكسية فى هذا السر التى تعبر عــنها كلمات الكاهن "المسيح حاضر يا بنى بصورة غير مرئية لكى يتلقى اعترافاتك... أنا فقط شاهد لكى أشهد أمامه بكل ما ستقوله". وكثـــيرا مـــا كان الأب سيرافيم يذكر للكهنة الحديثين غير المختبرين عن هذا الإتجاه بقوله: "تذكر يا أبى أنك مجرد شاهد، والله وحده هو الديان". وإذ كان ممتلئا بالإشفاق على آلام البشر كان ينفذ إلى أسرار النفس عن طريق حنانه البالغ آخذا خطايا الآخرين على نفسه، وعادة كـــان يركع بجوار المعترف التائب سائلا إياه أن يصلى إلى المخلص من أجل خطاياه. هذه هى صورة القديس سيرافيم أب الأعتراف [1] .

---

(١) فى الكنيسة الأرثوذكسية يقف المعترف وأب الإعتراف أمام أيقونة موضوعة على حامل، ثم يركع المعترف فى نهاية الإعتراف لينال صلاة التحليل من أب الإعتراف فكان الأب سيرافيم يركع هو الآخر. فهو كأب اعتراف يعطى حلا، وكخاطئ تائب يركع مع المعترف

القديس سيرافيم النبى

القديس سيرافيم خادم الروح القدس، كان نبيا بالتأكيد... وظيفة النبى مزدوجة فهو يحس ويرى المستقبل ويخبر به، والنبى أيضا يعلن الحق ويجسده. ويمكن أن يوضع فى مرتبة أنبياء العهد القديم الذين جاهدوا مع الله ليحصلوا على البر لشعبهم، وكذلك كان رسالة إلهية وسط هذا الشعب. ويلاحظ أن القديسين العظام يولدون فى أوقات الضيق لكى يعلموا الناس الإرادة الإلهية. فى زمان القديس سيرافيم كانت روسيا تموج بأفكار مضطربة فى الدين والسياسة، وتنتشر وتتصارع مع بعضها –وكانت هذه الأفكار نابعة من الشعب الروسى نفسه، كما كانت دخيلة من الخارج. لقد حزن القديس سيرافيم وتنهد قائلا: " نحن نضل على الأرض بعيدا عن طريق الخلاص، ونجلب على أنفسنا غضب الله"، وأحيانا كانت تمر أمام عينيه بعض المناظر الرؤوية... واكثر من مرة تحدث عن الزمن الذى سيقوم فيه ضد المسيح، وتنزع الصلبان من فوق الكنائس وتخرب الأديرة: "سيكون زمان ضيق لم يكن مثله منذ بداية العالم، إن الملائكة أنفسهم سيزدحم بهم الوقت ليجمعوا النفوس من الأرض" تكلم هكذا وكان وجهه الهادئ يمتلئ حزنا ويرتسم عليه تعبير الألم والدموع.

لقد جاهد من اجل شعبه بصلوات ملتهبة صاعدة من الأعماق، مثل تلك الشموع التى تحترق ليلا ونهارا من أجل الأحياء والأموات

أمـــام الأيقونـــة فى قلايته. وأحيانا كان يغلق على نفسه القلاية أياما طويلـــة كـــى يتضرع إلى الله من أجل خلاص نفس خاطئة. قال أن الشـــيطان كـــان ينتقم لنفسه منه بلكمات موجعة وكان التعبير اللفظى الـــذى اعطـــاه الأب سيرافيم لهذه الخبرة النسكية السرية هو: " الألم الـــذى أشعر به كنار مرئية ". وعندما كانت صلوات القديس سيرافيم تـــرن فى وسط الأرواح الطاهرة كان جسده يبدو كمن فقد خصائصه المادية، وكثير من الشهود أقروا أنهم رأوا القديس فى حالة رفعة فى تلـــك الأوقات وأقدامه غير ملامسة للأرض، كانت هناك أمثلة عديدة لـــنجاة بلـــده فى أوقات الكوارث: لقد أسكت عواصف، وسبق فأخبر بحلـــول مجاعـــات وحث الناس أن يخزنوا بعضا من القمح، وأوقف أوبـــئة ومخاطـــر عـــدة كانـــت تهدد بلده، وسبق فرأى حرب القرم وحـــوادث أخرى حدثت فعلا... لقد كان القديس سيرافيم هو الملاك الحارس لشعبه، ولهيب صلاته كعمودٌ نار فى الصحراء ليلا.

الجموع فى قلاية الشيخ

إن إجـــلال الشـــعب الروسى للقديس بدأ من قصر القيصر حتى أطـــراف سيبريا. وهناك قصة منقولة عن القدماء المعاصرين للقديس أن الإمبراطور الكسندر الأول حضر لاستشارة الأب سيرافيم، وبناء علـــى مشورة الأب ترك العاهل عرشه ليتوب عن خطاياه تحت إسم

(فيدركوزفيتش) متسربلا بعباءة سائح مسكين قائلا إن الأسمال البالية الـــتى لبســـتها كراهـــب هى عندى أفضل من لبس الإمارة الموشى بالذهـــب. وقد ذاعت أيضا كلمات زوجة الإمبراطور نيقولاس الأول حيـــنما قالت وهى على فراش المرض " إننى اعرف أن صلوات ذلك العجوز النحيف قد ساعدتنى لأ موت ميته حسنة مرضية عند الله[1] .

إن كـــان إحترام رجال البلاط للقديس بكل هذا المقدار الكبير فكم يكـــون التكريم أقوى عند عامة الشعب الذين تزاحموا ليلا ونهار عند قلايـــة القديس سيرافيم، مشاهدين العجائب والأشفية التى كانت تحدث امـــام عيونهم. لقد إغتاظ رئيس دير صاروف فقال بغضب: "كثيرون يأتون ليزوروا الأب سيرافيم، لدرجة أننا لا نقدر أن نغلق بوابة الدير حتى منتصف الليل" جماهير غفيرة باستمرار. وقد قدر السواح الذين يعبرون الطريق المؤدى إلى صاروف بألفى سائح فى يوم واحد وكان

---

(١) الموت بلا جزع علامة من علامات القداسة والإيمان الحقيقى. هذا ما أوضحه القديس نفسه إلى تلميذه يوحنا تيخونوفتش بقوله: "لو كنت تعرف السلام العذب الذى تتمع به أرواح الأبرار فى السماء لكنت تتحمل مختارا وبقلب شاكر جميع آلام هذا العالم وإضطهاداته وإفتراته. فإنه لو إحتشدت هذه الصومعة بالدود الأسود القبيح . ولو أن هذا الدود كان يخترق اجسامنا طوال أيام حياتنا على هذه الأرض، لوجب علينا القبول به لكى لا نخسر الفرح السماوى".
وبهذه الروح التى كان ينتظر بها الملكوت السماوى كن القديس يعلم الناس " أن يموتوا بفرح"
وقد قال أيضا لإحدى المتوحدات " إن الموت مسرة لنا ".

طريق (ارزاماس) لا يخلو من الغادى والرائح من المسافرين. ويمكنك أن ترى عربات الأغنياء الفخمة والحناطير المريحة، وعربات الفلاحين الفقراء. وكثير من السياح كانوا يأتون على الأقدام آتين من بعيد سائرين أحيانا لمدة أسبوع. وعندما يصلون إلى صاروف يتدفقون على الدير فى بيت الضيافة، أو الفنادق المحيطة، أو مساكن الفلاحين. ينامون فى الصيف تحت النجوم، وأحيانا ينتظرون أياما قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى الأب سيرافيم –وعند الفجر عندما تبدأ الأجراس تدق لصلاة باكر، يفتح الباب الكبير، ويتدفق السياح على فناء الدير مثل موج البحر يجيشون داخل حوائط الدير البيضاء... يا للتباين فى اللهجات والعادات هناك! كل واحد كان منتظرا خروج الشيخ، وكانوا يشرئبون ليروه حين يظهر. وعندما يخرج لابسا عباءته البيضاء بوجه سماوى يشع نورا داخليا، كل واحد يندفع إلى الأمام كى يقابله... هلم... تعال... اتفضل، هكذا كان يقول، ويبدأ الطابور، ويكشف الجسم البشرى الهائل كل آلامه وبؤسه. "تعالى يا ابنتى... تعالى" يقولها الشيخ لإمرأة حين يراها تتدافع بمنكبيها والجمهور لا يمكنها فتفقد اتزانها "أن زوجك مريض، وعليك أن تعودى إليه بسرعة" وبعد أن يعطيها ملء قبضة يده من البسكويت يصرفها بلطف. وفى أيام الأب سيرافيم كانت تحركات واسعة لكتائب الجيش لظروف الحرب، ونظرا لان صاروف

لـــم تكن بعيدة عن الطريق الحربى الرئيسى، فكان جنود كثيرون مع ضباطهم يأتون إلى الدير لاخذ بركة الأب. وفى أثناء غارات الأتراك والبولنديين، وحرب نابليون، كانت توجد أعداد هائلة من الناس يعتقدون من الصميم أنهم قد نجوا بصلوات القديس سيرافيم... أن رجال الحكومة أيضا أتوا ليبصروا الشيخ... وهناك قصة عن مسئول كبير أتى وقرع باب قلاية الأب سيرافيم لبضعة أيام، وقال الأب أن ليس لديه وقت ليراه... وبعد عدة أيام من الإنتظار باطلا عرف هذا المسئول أن كلمات الشيخ الجافة له كانت نقدا لطريقته هو فى استقبال المتظلمين لديه عندما كان يقول لهم أنه مشغول وليس لديه وقت.

وكان الأب سيرافيم يعرف مسبقا أن كان أحد الآتين إليه فى أتى لمجرد حب الإستطلاع، ظانا فى نفسه أنه أكثر علما من الشيخ فكان القديس يقول له باتضاع حقيقى "من أنا المسكين الحقير، بجوار عظمتك أنت وذكائك..." كان ارشاد القديس سيرافيم غاية فى البساطة " أعط خبزا للجائع، وشرابا للعطشان، افعل ما هو مستقيم، وداوم على السلام والصفاء الداخلى".

وكانت قلاية القديس سيرافيم بالدير صغيرة، وكانت لها نافذتان تطلان على فناء الدير وكانتا دائما مغلقتين... تضيئها شموع وقنديل زيت أمام الأيقونة الوحيدة فى حجرته وهى لوالدة الإله... وكان

يوقد الشموع دائما فى ذكرى الأحياء والأموات... أما أثاث القلاية فيتكون من كرسى وكنبة للزوار وكتلة خشبية كمنضدة، وشوال على الأرض كـــان بمثابة السرير، وكان أحيانا ينام فى نعش كان قد نحته يومـــا من جذع الشجر كان قد أعده لجنازته ووضعه على عتبة باب قلايته لكى يتذكر باستمرار ساعة موته.

ورغم ان الجموع كانت كثيرة حول الشيخ إلا أنه كان يوصل لكل واحد ما كان ضروريا له. يشجع واحدا، ويرشد ويعلم الثانى، ويشفى الثالـــث، ويـــبارك المتزوجيـــن حديـــثا، وينبئ بميلاد طفل لزوجين صـــغيرين، يقـــدم نصيحة للأطفال، ويرى مسبقا اقتراب موت إنسان ويـــنذره بـــأن يعـــد نفسه. يومه كله كان مشغولا فى خدمة النفوس، واحـــتفظ باللـــيل فقط لنفسه. وذات يوم، اتاه راهب مسن كان صديقا قديمـــا لـــم يره منذ ٢٠ سنة، وكان على هذا الراهب أن ينتظر حتى اللـــيل لكـــى يجد لحظة مناسبة للجلوس مع القديس، وعندما سمح له أخيرا أن يأتى إلى قلايته قال له "إنهم المرضى الذين عوقونى عنك، وكان على أن اقابلهم أولا، والآن يبقى لنا الليل حيث نستطيع أن نتكلم بحرية..." لقد أعطى اليوم كله للمرضى، ورغم ذلك أعطى القديس سيرافيم ليل الراحة لصديق قديم.

القديس سيرافيم والأطفال

كثـــيرون من الذين زاروا القديس فى طفولتهم، دونوا مذكراتهم. وهذه قصة كتبت فى احدى المجلات الدورية توضح كيف أن إبنة أحد الكـــتاب الروسيين هو (ن. اكساكوف)، قابلت الشيخ لأول مرة أثناء ســـياحة إلى صاروف مع أبويها ... قالت: حين وصلنا الدير اخبرنا الرئـــيس أن الأب ســـيرافيم فى الصحراء فى ذاك الوقت ثم قال إننى اشـــك أن كـــان ســـيقابلكم أم لا، ولكن ربما يقابلكم من اجل الأطفال الصـــغار الذين أحضرتموهم معكم... على اية حال ارسلوا الأطفال امـــامكم لأن الأب بمجـــرد ان يسمعهم قادمين سيخرج حتما. وقد نفذ آباؤنـــا نصـــيحته وســـرنا نحن الأطفال أمام المجموعة وشيئا فشيئا، أصبحت الغابة أكثر اظلاما، فتملكنا الخوف... ولكن ونحن فى هذه الحالـــة تفـــذت بعـــض مـــن أشـــعة الشمس من بين أغصان الشجر المتشـــابكة، فتشجعنا مرة أخرى ووجدنا ممرا فى الغابة مكتسيا بنور الشـــمس فاندفعـــنا خلاله وكنا خمسة أطفال ومجموعة الكبار وراءنا ... وحـــالا، رأينا عجوزا نحيفا يضرب بفأسه بمهارة جذع شجرة شـــربين وهو يقطع الأغصان السفلية النامية وقد استطالت عند قاعدة الشـــجر، حيـــن سمع صوتنا أرهف سمعه ثم اختبأ فى الأجمة، ولكنه عاد عندما لم يسمع صوتنا وكلنا كتمنا أنفاسنا ولاحظنا أنه يخفى نفسه بمهـــارة وســـط اغصان الشجر وبدأنا نحن الخمسة ننادى معا: أبونا

سيرافيم... أبونا سيرافيم.... وعند سماعه أصواتنا نحن الأطفال لم يستطيع الأب سيرافيم أن يبقى فى مخباه، وظهرت راسه البيضاء من وسط أوراق الشجر ووضع أصبعه على شفتيه كمن يطلب منا أن لا نظهره للكبار. وأتى نحونا عبر الأفرع الأرضية وجلس على الأرض واشار لنا أن نأتى إليه، وكانت صغيرتنا ليزة هى الأولى التى ألقت نفسها على رقبته وخبأت وجهها الوردى فى شاله البالى الذى يلفه على رأسه ويغطى به كتفيه "يا كنوزى الصغار... يا كنوزى الصغار" هكذا ردد الشيخ بكل حنان وضمنا إلى قلبه واحدا. عندما أرغم الأب سيرافيم رغم كل شئ أن يخرج ليقابل الجموع الآتية نحوه، رقدنا على الحشيش نراقبه ببهجة. وفى طريق عودتنا قالت ليزة الصغيرة لأختها، وهى الأولى التى احتضنها الأب سيرافيم: "هل تعلمين أن الأب سيرافيم يظهر فقط أنه عجوز، ولكنى اعتقد أنه طفل مثلى ومثلك".

هكذا كانت تستجيب قلوب الأطفال النقية لقلب القديس النقى. وكان حب الشيخ الرقيق للأطفال ملحوظا جدا... وكان يكفى أن يقرع طفل بابه حتى يفتح على الفور، مهما كان مشغولا. وكان يحدثهم عن تفاصيل ما اكملوه من دراسة، وكان يوجههم إلى المفروض عليهم، ويرى مستقبلهم وكان يقول أحيانا لطفل ابن ست سنوات أو سبع "أن الله اختارك يا ابنى"... أطفال كثيرون شفوا

بصلاته فهذا طفل مشلول محمولا على ذراعى والديه التعيسين وصار جسمه الصغير الذابل جلدا على عظم. لقد أتى والداه على الأقدام من مسافة بعيدة على أمل أن تحدث معجزة... وكانا ينتظران دورهما بصبر نافذ فى فناء الدير، ولكن القديس يترك كل شئ ويأتى إلى الطفل، ويحمله بين ذراعيه ويقبله ثم يعيده إلى والديه قائلا "أن نعمة الرب ستخلصه" ويتحول إلى المرضى الأخرين. وقد عرف فيما بعد أن الطفل قد شفى فعلا... وذاك طفل أعمى ينفخ القديس فى عينيه ويشعر الطفل أن الغشاوة التى تغطى عينيه قد اضمحلت، وبعد فترة وجيزة يعود إليه بصرة تماما.

لاحظ ولد أن أحد الجالسين عند الأب سيرافيم كان منظره مضحكا للغاية أن الطفل لم يستطيع أن يضبط نفسه من الضحك، فأخرجته أمه خارجا ولكنه عاد عندما انتهت المقابلة. وكان الأب سيرافيم وحده، فقال له "أنت يا صديقى... حسنا... حسنا... أن التوبة تمحو كل الذنوب" ثم فتح الإنجيل واجلس الولد بجواره حينما كان يقرأ الآيات من الإصحاح السابع للقديس متى: لا تدينوا لكى لا تدانوا... وكان له أعمق الأثر على نفس الصبى ومن وقتها تكونت عند الطفل عادة قراءة اصحاح من الإنجيل يوميا. وكان اشفاق الشيخ على الأطفال يمنعه أن يطالبهم بما هو فوق طاقتهم. وكان يحب أن يراهم سعداء وعلى سجيتهم... أن نيكولاوس موتوفيلوف طفل فى

السادسة، تعب من طول حديث أمه مع الأب سيرافيم، وبدأ يجرى ويلعب فى قلاية الشيخ ولكن أمه زجرته واوقفته عن اللعب فتدخل الشيخ قائلا "اتركى الطفل فى لعبه البرئ إنه يلعب مع ملاكه الحارس، استمر فى اللعب يا إبنى الرب يباركك..." هذه هى الذكريات التى حفظتها الأطفال طوال حياتهم عن الأب سيرافيم.

القديس سيرافيم وراهبات ديفيفو...

بمجرد أن ترك القديس سيرافيم وحدته، هرع إليه شباب كثيرون يطلبون ارشاداته ومعونته الروحية. وراهبات دير ديفيفو كن الأوائل اللائى بدأ معهن القديس ليقودهن فى حياة الرهبنة، وكان يقول لهن، "إن البتولية المكرسة أعمق بكثير من مجرد رفض الزواج، إنها حفظ النفس نقية ومكرسة للمسيح، مثل هذه تكون عروسا للمسيح، ومختارة من الروح القدس".

بعد نياحة الأم الكسندرا، إزداد عدد الراهبات إلى ٥٠ راهبة، وقد وجد دير صاروف أنه من الصعب عليه أن يمدهن بالإحتياجات المادية، وكان هناك اتفاق غير رسمى بين دير صاروف ورهبانية ديفيفو: أن يصرف على الثانى فى كل احتياجاته من كمية المال المتروكة من الأم الكسندرا، فى نظير أن تمد الأخوات دير صاروف بالكتان المغزول بأيديهن ولكن بعد فترة رأى الرهبان أنهم غير

قادرين على تحمل العبء، إنه ليس لائقا بدير رجال أن يهتم بمجتمع نســـاء، وقلـــيلا قليلا ترك دير البنات ليدبر نفسه بنفسه. وكانت الأم الرئيســـة الجديدة إمراة صارمة جدا، وقاست الأخوات الصغيرات من إدارتهـــا لهـــن. وأحس الأب سيرافيم أيضا وهو ملتزم بالوعود الذى وعـــده لـــلأم الكسندرا- أن من واجبه أن يحمى ويدبر اولئك اللائى وجـــدن أن القـــانون الرهـــبانى صـــعب جدا. ففصل الشيخ الأخوات المبتدئات عن القديمات وأعطى لهن قانونا رهبانيا قال أنه تسلمه من والـــدة الإله نفسها، ونظم من المبتدئات رهبانية جديدة بجوار القديمة أطلـــق علـــيه مجمع الطاحونة، (لانه فى وسط المبانى الجديدة ساعد الأب فـــى بـــناء طاحونـــة تمد الراهبات الصغيرات بالمؤن، لأنهن أصـــبحن بلا سند من دير صاروف). واعطاهن قانونا جديدا أقل حدة وأكثر مواءمة مع قدراتهن.

أخبرتـــنى إحـــدى الراهـــبات عن دعوتها فقالت: "كان عمرى ٥ سنوات عندما جئت إلى صاروف لأول مرة ، لم يكن هناك زحام فى ذلـــك اليوم، وعندما تلونا الصلاة التى كنا نقولها عادة ونحن ذاهبون إلـــى قلايـــة أبونا سيرافيم، فتح الباب على الفور وقال وكأنه يحيينى "أهـــلا ...أهلا يا صغيرتى" ورغم كونه لم يرانى من قبل كان يبدو كما لو كان فى إنتظارى و يعرفنى. ولأنى كنت قصيرة عن أن أصل إلى الأيقونة التى للعذراء حملنى بنفسه حتى أتمكن من ان أقبلها...

وقـــال لى: "لقد إختارتك العذراء" وعندما بلغت الثانية عشر قال لمن أحضــرونى: "أنه وقت لتخطبوا للفتاة فعند ذهابها للكنيسة فى الآحاد والأعياد يجب أن تلبس فستانا وحذاء أبيض" وكل وقت أذهب فيه إلى صاروف بعد ذلك كان يحدثنى عن الخطوبة. وبعد سن السادسة عشر كلمنى بصراحة إنه يجب عل أن ادخل الدير.

هكذا كان القديس سيرافيم يقرأ دعوة كل طفل صغير ... الدعوة المكـــتوبة فـــى اعماق قلبه، هكذا كان يعد لهم الطريق. وأصبح دير الراهـــبات ديرا مثاليا رئيسته – كما يقول الشيخ – هى العذراء مريم ذاتها التى تعطى أوامرها للشيخ وكما أنه يتخذ أى تنظيمات للراهبات الا ويكون استلهمها برؤى عديدة كان يراها. لقد اشتغل لسنوات عدة لإعداد المواد اللازمة لبناء طاحونة، وقلالى وعنابر، وكنيسة. واختار ميخائـــيل مانـــتروف، الـــذى كان قد شفاه، معاونا له فى تدبير الدير ماديـــا. واخــــتار الأب سيرافيم يوم عيد التجلى لتدشين الكنيسة لكى يعطـــى رمزا لحياة التجلى الكائنة فى المجمع الرهبانى الصغير. كان الشيخ يراعى كل تفاصيل احتياجات الراهبات للمعيشة المادية، ونظام أعمالهـــن، وقانون صلاتهن. وكل الهدايا التى قبلها الشيخ من زواره سلمها لدير الراهبات: شموع عسل، نبيذ للتقديس، زيت، كتان، بخور، وكـــان يرسل إليهن القمح والنباتات والزهور "القمح يغذيهن والزهور تـــبهج قلوبهن" ومعظم الراهبات اتين من القرى المجاورة وكان يقول

لهــن: "اعلــم أن حياتكــن صعبة وطعامكن خشن، ولكن العذراء قد اختارتكن يا بناتى الصغيرات".

وكانــت المبتدئات الصغيرات تعملن فى الحقول: يحرثن الأرض ويقطعــن الأشجار فى الغابة ويعتنين بالحديقة ... وكان الشيخ يقول أن: "بناتى الصغيرات يشتغلن كالنحل" ولكن الشئ الذى يعجبه بالأكثر هو شدة عنايتهن بالكنيسة وتنظيفها حتى لم يعد فيها بقعة واحدة... قــال: "إن كنتــن لم تعملن شيئا سوى تنظيف بيت الله فإنكن قد قمتن بعمل أعظم من اى عمل آخر".

لقــد بنيــت كنيسة المخلص فى طرف قرية ديفيفو، وارتفع برج اجراســها الفضــى نحو السماء فوق الحقول والغابات البعيدة وعلى الطــرف الآخــر من الموقع كانت الطاحونة تتوسط صفين من قلالى الراهــبات، وكــان الموقع محاطا بخندق صغير عميق، وسد. وقال القديــس سيرافيم "هذا الخندق حفرته ملكة السماء وهذا السد هو مقر اخــتارته العــذراء مريم غير الدنسة لها" وقد أكمل الشيخ والأخوات حفر الخندق ليكون الموقع معزولا تماما.

وكــان حــى ديفيفو قبل القديس سيرافيم مشهورا بمناجم الفحم، وفــرق العمال الذين سكنوه... وقد عرف الحى السرقات والدعارة وكــل النتائج الوخيمة للسكر. وكان الشيخ يسال احدهم: "هل تعرف

مـــاذا كانـــت هـــذه المدينة ؟ لقد كانت مأوى للشيطان بعيدا عن هذه الأماكن".

وكان مجمع الراهبات هو العمل الذى توج به القديس كل اعماله وهـــو الذى يطلق على نفسه: الخادم الصغير لأم الله، الذى كان ينفذ بامانة أوامر ملكة السماء لذلك استطاع أن يوجد الحصن الشامخ من الصـــلوات فـــى وسط عالم فاسد مضطرب... ملكوت الله لا يأتى بمراقبة، هكذا تخبرنا كلمة الله، لان ها ملكوت الله داخلكم" (لو١٧: ٢١ ، ٢٢) فكـــرة ملكـــوت الله هـــذه قـــد تكونت فى أعماق قلب القديس ســـيرافيم، ولـــم يتجسد الملكوت فيه فقط بل شارك فيه هو وراهباته وهن تحت الإرشاد الساهر لمرشدهم تجلت حياتهن على نفس صورة أم الرب القديسة مريم العذراء كلية الطهر.

الحمامتان

كـــان لميخائـــيل مانـــتوروف أخت فى السابعة عشر من عمرها وكانـــت مخطوبة، وبعد معجزة شفاء أخيها تعودت هيلين الذهاب إلى صـــاروف وتأثـــر قلـــبها وتغير هناك. وبدون ابداء الأسباب فسخت الخطوبـــة وكرست نفسها للعناية بجدها الذى كان على فراش الموت. وأعلـــن الله لها فى رؤيا بأن تكون راهبة. ومضت ثلاث سنوات قبل أن يعطـــيها الأب ســـيرافيم موافقـــته على دخولها الدير وكان يقول:

"إصبري قليلا، لا تتعجلى" وعندما اختبر طريقة تفكيرها وعقليتها سمح لها أخيرا أن تذهب إلى ديفيفو وتستعد لأخذ الشكل الرهبانى "إنك تريدين أن تكونى أسدا فى حياة تكريس ولكن هذا طريق صعب ليس لك. أنتن البنات تشبهن الحمام، وأنت ستكونين حمامة مثل راهباتى الصغيرات. ذكرى نفسك دائما بإجابة العذراء "هوذا أنا أمة الرب ليكن لى كقولك".

باشرت هيلين فى ديفيفو حياة الصمت والصلاة والعمل. ووضع الأب سيرافيم فيها ثقته وأسند إليها عمل السكرتارية وأيضا قندلفت الكنيسة. بالإضافة إلى مهمة تعليم المبتدئات، إذ قد تلقت معرفة جيدة، وكل شئ كان يرسله إليها أخوها أو صديقاتها كانت توزعه على الأخوات بالدير سرا. وأحضرت معها إلى ديفيفو خادمة، لا تتركها، وعندما أصيبت هذه الفتاة بالسل أخذتها هيلين إلى قلايتها الخاصة رغم معارضة الراهبات، وتركت لها سريرها وخدمتها بكل إشفاق، ولكن الفتاة لم تعش طويلا. وكان لموتها صدى حزن عميق على هيلين، وبعد شغل بالنهار وسهر بالليل أحست أن صحتها تخونها، وكانت تتمنى أن تموت قبل الأب سيرافيم الذى بدأت قواه تضمحل وتذبل يوما بعد يوم كما هى رأت وكانت تقول للأخوات. "ياه... أريد فقط أن أموت قبله".

وفــى هذا الوقت بالذات جاءتها أخبار مزعجة عن أخيها مايكل الــذى كــان ذاهــبا فــى مهمة إلى مكان ملئ بالمستنقعات فأصيب بالملاريــا وقــال لها الشيخ "إن إصابة أخيك خطيرة. وأنت تعرفين حاجــة الديــر إليه... لقد فكرت فيك... أترغبين أن تموتى بدلا عــنه؟" فقالــت هيلين بهدوء "لقد أطعتك باستمرار يا أبى"، ولكن بعد دقيقة واحدة: بعد أن تحققت ما ينتظرها انزعجت وصرخت: يا أبتاه اننــى أرتعــب مــن الموت. فإجاب الأب سيرافيم "ماذا يرعبك فى المــوت؟... الموت بالنسبة لنا هو فرح أبدى" ثم رشها بماء مقدس وودعهــا إلــى الــباب. وعند عودتها أحست هيلين أن قواها تفارقها وذهبت إلى الفراش ولم تقم منه مرة أخرى. كان موتها ملفتا للنظر، وأخذت المناولة وسلمت على الأخوات سائلة السماح والمغفرة من كل واحدة، وسألت أن يعددنها للدفن وفي اللحظة الأخيرة قبل تركها العالم أعلنت أنها رأت الرب كنوز لا يعتبر عنه، وعندما أخبرت الأخوات الأب ســيرافيم عــن موتهــا بــالدموع، قال الشيخ لهن: "أيتها... الســاذجات انتــن لا تفهمن شيئا! آه لو كنتن رأيتن نفسها طائرة فى السماء كالحمامة!!" وهكذا أطلق القديس هذه الحمامة لتطير إذ قد فتح لها باب القفص بنفسه.

أمــا الحمامــة الثانية التى انطلقت من دير ديفيفو فكانت مارى فيلــيوكوف الصغيرة. وهذه عندما كانت فى سن ١٣ سنة تبعت أختها

الكبرى ودخلت الدير فى ديفيفو، وأذن لها الشيخ بالبقاء. وكانت طفلة هادئــة رقيقة، حياتها كلها للصلاة والتأمل، وقالت عنها الأخوات "إن لها طبيعة ملائكية. الإتضاع والطاعة هما فضيلتاها المميزتان". ومرة سألتها أختها عن اسم الراهب الذى قابلاه عند الأب سيرافيم، فأجابت الطفلـــة أنهــا لم تأخذ بالها إطلاقا من الناس الذين تقابلهم عند الأب سيرافيم الذى أخبرها أن تحفظ نظرها إلى أسفل ولاجل هذا هى تلبس القــبعة بطريقة خاصة، لا تجعلها ترى إلا الأرض التى تحت قدميها فقــط. لقــد أحــب الأب سيرافيم مارى الصغيرة جدا، واهداها قبعة خضراء مشغولة بخيوط مذهبة كانت تلبسها وهى ذاهبة إلى الكنيسة، واعطاهــا مسبحة لتعلمها أن تصلى، وقد أدخلها هو بنفسه إلى طرق التصــوف والتأمل الإلهى. كانت مارى تعمل مع الأخوات الأخريات فى الحقول، وكانت تساعد البنائين فى حمل طوب البناء للكنيسة... وبصــلوات دائمـــة كانت ترفع نفسها الملتهبة إلى الله. لكن تلك النار المضطرمة فى داخلها كانت لها قوة التهام هذا الكائن النادر الذى كان صـــغيرا جــدا علـــى الحياة النسكية التى عاشتها وبعد ٦ سنوات من العمــل والصلاة، وهى فى سن التاسع عشر، بدأت مارى فى الذبول بكل هدوء كما عاشت، إذ كانت قد نضجت كحزمة جمعت فى زمان الحصـــاد. وقـــد عمل لها الأب سيرافيم نعشها بنفسه، وأرسل عباءته الرهبانـــية لـــتحوى جثمان مارى، ووضعوا سبحة الأب سيرافيم فى يديها المضمومتين...

٣- تجلى الروح القدس

نيكولاس موتوفيلوف

إلى هذا الثرى الصغير، يرجع الفضل فى نشر حديث هام له مع الأب سيرافيم، إذ دونه في المذكراته التى عثر عليها فى مخطوطات ديـــر ديفيفو بعد ٧٠ سنة. فبعد زيادته مع أمه وهو فى السادسة من عمـــره، لم يذهب إلى صاروف مرة أخرى إلا وهو فى سن ٢٢. وقد ورث عن أبويه املاكا ضخمة وسط روسيا، وكان صبيا ذكيا ذا روح وثابـــة تـــريد أن تعرف كل شئ خصوصا غوامض اللاهوت. وكان اســـاتذته يضـــيقون ذراعـــا بأسئلته المحيرة. وحين انهى دراسته فى جامعـــة كـــازان، حصل على وظيفة ناظر مدرسة إبتدائية، وبالنسبة للـــنظام البيروقراطى رفضوا الإعتراف به كمخترع، فصار له أعداء كثـــيرون_ والمتاعـــب الناجمة عن هذا سببت حالة إنهيار فى القيم، وتـــبعها مرض عصبى أشل ساقيه فلزم الفراش وهو فى حالة يأس. وقـــرر أن يذهب إلى صاروف ليسأل الشيخ الذى لم يكن.قد رآه منذ طفولـــته، ولما لم يجد القديس بالدير امر خدمه أن يحملوه إلى الغابة ورأى موتوفـــيلوف الأب سيرافيم عن بعد جالسا تحت شجرة صنوبر وحولـــه بعض الزوار، وعندما سأله القديس نفس السؤال الذى وجهه

إلى مانتورف من قبل: (هل لك إيمان فى الرب يسوع المسيح، وهل تعــتقد انــه فى أيامنا هذه كما فى القديم يمكن أن يشفى كل الطالبين إلــيه؟) فأجاب موتوفيلوف انه يؤمن فعلا بهذا، فقال الشيخ: "إن كنت تؤمــن بقلب ثابت راسخ، فأنت قد شفيت هيا قم" ولكن نيكولاس تردد شــاعرا بــالألم، فأمسك القديس بيده وأقامه برفق وجعله يمشى بضع خطوات، فأحس بقوة غير طبيعية تسرى فى كل كيانه وتحقق فعلا انه قــد شــفى وقــال له القديس "إدخر صحتك ككنز ثمين اعطى لك" ثم تحول إلى غيره. وأصبح نيكولاس بعد ذلك زائرا مستديما للقديس بعد شفائه...

حديث موتوفيلوف مع الأب سيرافيم

فــى نوفمــبر سنة ١٨٣١ كان لموتوفيلوف حديث هام مع الأب سيرافيم، قبل نياحة الشيخ بثلاثة عشر شهرا. وجرى الحديث فى نفس المكــان حيــث تمت معجزة الشفاء فى الخلاء تحت شجرة الصنبور على شاطئ نهر ساروفكا. وهذا نص ما دونه موتوفيلوف:

كــان يوم خميس، وكانت السماء، والأرض مكسوة بالثلج الكثير الــذى يتساقط الهوينا بالطريقة المعتادة فى روسيا، وعندما استقبلنى الأب سيرافيم فى الغابة وطلب منى أن أجلس على جذع شجرة قطعت مــن زمن قريب، جلس هو بالقرب منى. وبدأ الأب حديثه بقوله: "لقد

كشـــف لـــى الرب إنك منذ الطفولية كنت تواقا لمعرفة الحقيقة للحياة المســـيحية" فقلـــت له: الحق أقول اننى منذ عامى الثانى عشر، كنت مشغولا بهذه القضية وقد طرحت السؤال مرات كثيرة دون ان أحظى بجـــواب مـــرض". وتـــابع الأب حديثه قائلا:"لقد وجهت السؤال إلى كثيرين حتى إلى أحبار الكنيسة، ولكنك لم تحصل على إجابة مرضية على الإطلاق. لقد أخبرت أنه يجب عليك الذهاب إلى الكنيسة، تسلك حســب وصايا المسيح، تكون رحيما سخيا ... الخ، والبعض اظهر امتعاضـــا بمـــا اســـموه فضـــولا زائدا وها أنا الآن خادم الله الحقير سيرافيم، أريد ان اشرح لك ما هى هذه الغاية.

إن غاية الحياة المسيحية الحقيقية هى اقتناء الروح القدس...

الصـــلاة، الصـــوم، وأعمال الخير المقدمة فى إسم المسيح، هى أعمال ممدوحة فى حد ذاتها، ولكنها لاتعتبر هدفا... انها وسائل، أو بضائع أرضية على الإنسان ان يتاجر فيها ليصنع مكاسب مودعة فى بنك الروح للتوفير.

تطبيق من مثل العشر عذارى:

يظـــن البعض ان نقص الزيت فى مصابيح الجاهلات يرجع إلى نقص أعمال الفضيلة عبر زمان الحياة هذا ليس صحيحا، لم تنقصهن فضـــيلة، ألـــم تكن عذارى؟ لقد كان الروح القدس هو الذى ينقصهن

(الـــروح القدس يرمز إليه دائما بالزيت فى الأسرار بحسب المفهوم الأرثوذكســـى) إن الجاهلات لم يبحثن عن إقتناء الروح القدس،٠٠٠ كن مؤمنات بمجئ العريس، وأكملن أعمالا صالحة - ولكن الأعمال الصالحة فى حد ذاتها ليست شيئا ان لم تعمل بواسطة المسيح لحساب المســيح. إن لم تكن الأعمال فى إسم المسيح تكون من المجد الباطل لإرضاء غرور الإنسان وتتحول إلى شر. ان ما يمنحنا خلاصنا ليست أعمالــنا الفاضـــلة أو كميـــتها، بل الثمرة التى نحملها- نعمة الروح القدس.

إن الزيـــت فى مصابيح العذارى الحكيمات أعطاهن أن ينتظرن حـــتى مجـــئ العـــريس والدخـــول معه فى حجرة الفرح الأبدى. أما الجـــاهلات فقد كان عليهن أن يذهبن إلى السوق: والسوق يرمز إلى حياتـــنا، وغلـــق باب الحجرة هو موتنا، أما الزيت فانه نعمة الروح القدس التى تملأ كياننا فتحولنا من حالة الفساد إلى حالة عدم الفساد. تحولـــنا مـــن حالـــة الموت الجسدى إلى حياة الروح. يحول اصطبل الأوجـــاع الذى داخلنا والمربوطة فيه كل الوحوش إلى هيكل لله، إلى حجال مقدس حيث نقابل ربنا ومخلصنا وعريس نفوسنا.

توضيح لدور الأعمال:

لاحظ ان اى عمل أن لم يكن حبا فى المسيح، لا يجلب لنا ثمار

الـــروح القدس، ولا يكون له أجر في الآخرة ولا نعمة في هذه الحياة وبهذا المعنى قال الرب:"من لا يجمع معي فهو يفرق". ومهما يكن من أمـــر فان العمل الصالح مفيد باستمرار فانه مكتوب:"بل في كل أمة الذى يتقته ويصنع البر مقبول عنده" (اع١٠ :٣٥) إن الرب عندما رأى أن كورنيلـــيوس قـــائد المئة يخاف الله ويصنع البر، لم يشأ أن يضيع تعب هذا الإنسان باطلا، فارسل له معونته الإلهية... ظهر له ملاك فـــى الصـــلاة قائلا: إذهب إلى سمعان الملقب بطرس وهو يقول لك كلمـــات الحـــياة. وبهذه الكلمات تخلص أنت وأهل بيتك. وهكذا اتى بطرس واعطاهم نعمة الروح القدس... أن إقتناء نعمة الروح القدس يجعل ملكوت الله ثابتا فى قلوبنا، وهذه النعمة تقود خطانا إلى طريق الغـــبطة الابـــدى. ان الخـــالق يعطينا الوسائل ولكن تحقيقها متروك لإنسان. ولهذا يقول السيد لليهود:"لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطيئة ولكن الأن تقولون أننا نبصر فخطيئتكم باقية" (يو٩:٤١).

إن الإنسان الذى يشكو أن أعماله كثيرة ومع ذلك لا يحس بثمار روحية... هو إنسان يعمل لحساب ذاته وليس لحساب المسيح، ولو أن هـــذا الإنسان – كما حصل لكورنيليوس – يعرف أن يجعل عمله مرضـــيا لـــدى الله، ويكون له إيمان وحب للمسيح. فإن عمله يحسب عمـــلا صـــالحا قادرا أن يوهب الإنسان إكليل البر فى الحياة الأخرة ... ويمـــلأه فى هذه الحياة بثمار الروح القدس كما جاء فى الكتاب

المقــدس: "إنه ليس بكيل يعطى الله الروح. الآب يحب الابن وقد دفع كل شئ فى يده" (يو٣: ٣٤، ٣٥).

نعـم يـا صديق الرب إن إقتناء الروح القدس، روح الله، الإقنوم الثالـث الأقـدس، هـو الهدف الحقيقى للحياة المسيحية، وما الصلاة والصـوم والسـهر والصدقة وغيرها من الأعمال الصالحة المعمولة حبا للمسيح غير وسائل.

سؤال عن كيفية إقتناء الروح القدس:

عـندئذ سألت الأب سيرافيم: بأى معنى تتكلم عن إقتناء الروح؟ انـنى لا أفهم جيدا فأجابنى: إن الإقتناء معناه أن تأخذ شيئا ملكا لك، هـل تفهـم؟ ألا تقـول عن إقتناء المال! نفس المعنى بالنسبة لإقتناء الـروح القـدس. هـل تعلم ماذا تعنى كلمة اقتناء بالمعنى البشرى؟ الإنسان العادى هدف الحياة عنده هو إقتناء المال أو نوال الألقاب أو المكافـآت، أما الإنسان المسيحى فالروح القدس عنده هو راس مال ابدى يمكن امتلاكه بوسائل مشابهة لوسائل امتلاك المال. ربنا يسوع المسـيح، كلمـة الله، يشـبه حياتنا بسوق متاجرة، ويدعو الجميع أن يـتاجروا إلى أن يجئ "مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة"- وهذا يعنى اربحوا فى زمانكم، ودبروا أوقاتكم الثمينة جدا لتقبلوا الإله السماوى، تاجروا فى البضائع الأرضية التى هى الأعمال الصالحة المعمولة حبا

فـــى المســـيح، الـــتى تؤهلنا لنعمة الروح الكلى قدسه الذى بدونه لا خـــلاص للإنســـان. لأن كل نفس تحيا بالروح القدس وتتنقى مرتفعة ومتلألئة بالثالوث الواحد بحالة فائقة سرية عجيبة.

أن نفوســـنا تصبح مسكنا لروح الله الكلى القدرة. ونحن لا نكون أهـــلا لســـكناه إلا إذا عرفنا كيف يمكننا أن نقتنيه. وهو الذى يسبق ويهيـــئ نفوســـنا وأجسادنا لنكون هيكلا لله الخالق حسب الآية: اسكن فيهم وأكون لهم إلها ويكونون لى شعبا.

الصلاة وسيلة لإقتناء الروح القدس:

إن كل عمل يعمل محبة فى المسيح، يعطى نعمة الروح القدس- والصـــلاة هي أسهل الوسائل، وأكثرها فاعلية. ويسهل إستخدامها فى كـــل آن: وقـــد تود الذهاب إلى الكنيسة لكن ليس هناك كنيسة أو أن خدمة القداس تكون قد انتهت، وقد تود مساعدة فقير فى طريقك، وقد تـــود أن تـــبقى طاهرا ولكن بالنظر إلى ضعفك أمام مكايد العدو لم تستطع. أما الصلاة فإنها تصلح لكل آن، وكل إنسان يستطيع أن يقوم بها: الغنى الفقير، الصحيح والعليل، الصالح والخاطئ. إن قوة الصلاة عظـــيمة وهـــى تعطى نعمة الروح القدس أكثر من كل شئ. بواسطة الصلاة نستطيع أن نخاطب الرب الصالح والمحيى.

وواصل الأب سيرافيم حديثه مع موتوفيلوف قائلا: أنت تعتبر إنه إمتياز فائق كونك تتحدث مع سيرافيم الحقير، مفترضا أنه ليس خاليا من نعمة، فكم بالحرى حين تكلم الله ذاته؟

علينا أن نصلى إلى أن يحل الروح القدس علينا، ويعطينا بحسب قياس يعرفه هو، ويملأنا من نعمته السمائية، وإذا زارنا، علينا أن نصمت أمامه لكى تسمع النفس وتفهم رسالته... عندما يتعطف الروح القدس ليزورنا علينا أن نتوقف عن الصلاة الصوتية، يجب على النفس أن تكون صامتة تماما لكى تسمع وتفهم رسالته. لأن المعزى يكون آنذاك قد أتى وحل فينا ليخلصنا، نحن الذين أسلمنا له ذواتنا، ودعونا اسمه القدوس كى نقتنيه بكل تواضع ومحبة فى هياكل نفوسنا الجائعة والمتعطشة لمجيئه.

الأعمال الأخرى غير الصلاة:

"إن طبيعة حالنا إننا غير صبورين فى الصلاة"، فسأل موتوفيلوف: "ما هى الوسائل الأخرى غير الصلاة ؟" فأجابه الأب سيرافيم "بالمتاجرة بأى عمل يعطينا ربح نعمته" إن تعاليم الشيخ تطابق تماما تعاليم بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس عندما يقول الرسول:

"أنواع مواهب موجودة، ولكن الروح واحد.

وأنواع خدم موجودة، ولكن الرب واحد.

وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد.

الذى يعمل الكل فى الكل.

ولكنه لكل واحد يعطى إظهار الروح للمنفعة" (١كو١٢: ٤-٧)

وأضاف الأب: تاجر بفضائلك الروحية، إنشر مواهب النعمة لكل من يسألها منك. الشمعة المضيئة تنير شموعا أخرى دون أن تفقد هى ضــوءها، الغنى الأرضى عندما يوزع ينقص أما الغنى السمائى فإنه عندما يوزع يزداد.

ثم ساله موتوفيلوف: باى طريقة أستطيع أن أعرف أننى فى حالة نعمة الروح القدس ؟

فاجــاب الأب: هذا سهل جدا يا صديق الرب: ألم يقل السيد: كل شــئ ممكن للمؤمن. الرسل كانوا مؤمنين وكانوا يعلمون دائما ما إذا كــان روح الله فــيهم أم لا، وعــندما يرون الروح كانوا يؤكدون أن أعمــالهم صــالحة ومقبولة لدى الله. وهذا يفسر ما كانوا يكتبونه فى أعمالهم "لأنه رأى الروح القدس ونحن" وهم استنادا إلى هذه الحقيقة الأساســية فرضوا أعمالهم كأعمال أساسية لكل المؤمنين. إن الرسل القديســين كــانوا يعرفون بطريقة حسية وجود روح الله. الا ترى يا صديق الرب كم هذا سهل.

- لكننى لا أفهم جيدا كيف أكون مشمولا تماما بالروح القدس واستطيع أن أكون الشاهد على ذلك ؟

- لقد قلت لك هذا سهل جدا، وحدثتك كيف يكون الناس فى حالة نعمة الروح القدس. ماذا يلزمك بعد:

هل يمكن لأحد أن يبصر الله ؟

قال موتوفيلوف: أبى ... تكلمت عن نوال الروح القدس كغاية للحياة المسيحية ولكن كيف أشعر به وأدركه. ان الأفعال مرئية أما الروح القدس فغير مرئى، وكيف أعرف إن كان فى أم لا ؟

لقد وضع موتوفيلوف - دون أن يعرف - سؤالا لاهوتيا له أهميته القصوى، لقد أثير هذا السؤال مرات عديدة. وكانت إجابات النساك الشرقيين دائما بالإيجاب. يمكننا أن نعرف وجود الله فى الداخل. فقد رأوا اللاهوت كنور غير مخلوق، وقد كتب سيمون (اللاهوتى الجديد) أب دير القديس ماماس فى القسطنطينية فى بداية القرن الحادى عشر "الله هو نور وهو يمزج ضياءه بالذين ثبتوا واتحدوا به بحسب قياس كمالهم... الإنسان يجمع ذاته ويوحدها بالله روحيا وجسديا لأن نفسه لا تنفصل عن روحه ولا جسده عن نفسه. الله يدخل فى شركة كلية مع الإنسان الواحد كله الذى هو إله الطبيعة

يتحدث مع الذين صاروا آلهة بالنعمة... الروح القدس يصبح فى داخلهم كما أخبرتهم الأسفار المقدسة عن ملكوت الله.

الروح القدس هو نور "هكذا قال الشيخ سيرافيم إلى موتوفيلوف، ولكن موتوفيلوف كان يبدو أنه غير مقتنع... فقال: إننى أريد أن افهم بأكثر وضوح...

التجلــى:

القديس سيرافيم: إسمع يا صديقى: الآن كلانا فى هذه اللحظة موجودان فى الروح القدس. لماذا لا تنظر إلى ؟

موتوفيلوف: أنا لم أعد أستطيع أن أنظر إليك يا أبى فإن عينيك يشع منهما نور كالبرق الخاطف وقد صار وجهك يتوهج أكثر من الشمس، وقد انبهرت عيناى من النظر إليك.

القديس سيرافيم: لا ترتعب، فأنت أيضا فى هذه اللحظة قد صرت مضيئا كما صار لى، فقد أصبحت أنت أيضا الآن فى ملء روح الله وإلا ما كنت تستطيع أن ترانى بما رأيتنى فيه".

وإنحنى نحوى واسر فى أذنى "إشكر الرب على صلاحه اللانهائى نحونا، وهوذا أنت ترى أنى لم أعمل شيئا قط من أجل ذلك حتى ولا إشارة الصليب، ولكن كان يكفى أنى ناديت الرب مصليا بفكرى ومن قلبى قائلا "يا رب إجعله مستحقا أن يرى بعينيه حلول

روحك الذى تنعم به على خدامك عندما يتراءى لك أن تظهر لهم فى بهاء مجدك العجيب وهكذا ترى يا صديقى أن الله إستجاب فى الحال لصلاة سيرافيم الحقير، علما بأنه حتى الآباء فى الصحارى لم توهب لهم دائما هذه العطية التى بها استعلن صلاحه. إن نعمة الله كأم مملوءة حبا وحنانا نحو أولادها، رأت أن تعزى قلبك المضطرب بشفاعة أم الله ... فلماذا أراك يا صديقى لا تريد أن تحدق فى وجهى ؟ أنظر فى بحرية بدون خوف فالرب معنا الآن.

فلما شجعتنى بهذه الكلمات تطلعت إليه فغمرنى خوف مقدس... تصور إنك رفعت عينيك فجأة إلى قرص الشمس الوهاج فى عز الظهر لتحدق فى وجه إنسان داخل هذا القرص وهو يتحدث إليك.

كنت الحظ تحرك شفتيه وملامح عينيه وأسمع صوته وأحس بيديه وهو ماسك كتفى، ولكنى لم استطيع أن أرى يديه ولا باقى جسمه، فالكل غاب عن بصرى ما عدا النور المتوهج الذى يحيط به والذى يشع منه فيسقط على الثلج الذى يغطى الأرض من حوله ويضئ قطع الثلج المتساقط علينا من السماء.

القديس سيرافيم: بماذا تحس ؟

موتوفيلوف: بسعادة تفوق الوصف.

القديس سيرافيم: أى سعادة ؟ حدد بالضبط.

موتوفيلوف: أشعر بهدوء وسكينة وسلام فى نفسى لا أستطيع أن أجد كلمة تعبر عنها.

القديس سيرافيم: إسمع يا صديقى: هذا هو سلام المسيح الذى وعد به: سلامى أعطيكم سلامى أترك لكم السلام الذى لا يستطيع العالم أن يعطيه، السلام الذى يفوق كل عقل، ولكن بماذا تشعر أيضا.

موتوفيلوف: بسرور لا حد له داخل قلبي.

القديس سيرافيم: حينما يأتى الروح القدس ويحل على إنسان ويحيطه بملء وجوده تفيض النفس بفرح لا ينطق به لأن الروح يملأ كل ما يلمسه سرورا. فإذا كان باكورة الفرح السمائى قد ملأ قلبك بهذه اللذة وهذه السعادة فماذا تقول عن الفرح الذى سنناله فى الملكوت الذى ينتظر كل الذين ينتظرونه الآن على الأرض ؟!! واعلم يا صديقي إنك وإن كنت قد بكيت أيضا هنا فى زمان غربتك على الأرض فانظر أى فرح أرسله لك الرب ليعزى قلبك أيضا الآن هنا من أجل ذلك ينبغى أن نجاهد فى الحاضر حتى نبلغ إلى قياس قامة ملء المسيح ونتشدد أكثر فأكثر لأنه حينئذ يتحول الفرح الجزئى المؤقت الذى نحسه الأن، ويستعلن فى ملء كماله ليغمر وجودنا كله بمسرات لا ينطق بها ولا يستطيع أحد أن ينزعها منا.

إن السيد يعطى السلام الذى تشعر به الآن لجميع الذين يكرهون العالم الذين إختارهم هو، وماذا تشعر أيضا ؟

- إننى أشعر بعذوبة لا توصف.

فـتابع الأب سيرافيم كلامه قائلا: إن هذه العذوبة هى التى كتب عـنها "مـن فيض عذوبتك ترويهم، هذه العذوبة تملأ عروقنا لذة لا توصـف وتذيب افئدتنا وتغمرنا ببهجة يعجز كل لسان فى العالم عن وصفها، وماذا تشعر أيضا ؟

- لـيس على الأرض شئ أكثر عطرا وأزكى رائحة من العطر الذى اشتمه، وليس على الأرض زهرة تعطى مثل هذه الرائحة.

فـتابع الأب سـيرافيم كلامه بهدوء: "أنا اعلم هذا وقد سألت عن قصد بماذا كنت تشعر ؟ نعم أن ما تقوله يا صديق الرب صحيح ليس علـى الأرض رائحـة أزكى من التى تفوح حولنا، لأن هذه هى من الـروح القدس وهل على الأرض ما يشبه هذا ؟!... وماذا أيضا يا ولدى ؟

- أشعر بحرارة لا توصف!!

- كـيف يا صديقى ونحن الآن فى غابة فى فصل الشتاء وتحت أرجلنا الثلج، كما أن الثلوج تتساقط، ومازالت تتساقط فوق رؤوسنا ؟ وكيف تشعر بالحرارة وما هى هذه الحرارة ؟

- هى نفس الحرارة التى أشعر بها فى فصل الصيف وفى صميم الشمس...

- إن هـذه الحـرارة ليست من الهواء ولكنها فينا. إنها الحرارة الـتى نطلـبها من الله باتضاع فى صلوتنا حين نقول "إلهبنى يا رب بحـرارة الروح" لذلك لا يخاف النساك والمتعبدون برد الشتاء لأنهم متسلحون بهذه الحرارة ومتسربلون برداء الروح القدس .

✝ إن نعمـة الـروح كائـنة باستمرار فينا لأن الرب يقول: ها ملكوت الله داخلكم.

✝ نعمـة الروح هى التى تنيرنا وتدفئنا وتملأ الهواء المحيط بنا عطرا، وتملأ قلبنا فرحا عظيما .

✝ إن الحالـة الـتى نحـن فيها الأن هى التى قال عنها الرسول بولس "إن ملكوت الله ليس اكلا وشربا بل هو بر وسلام وفرح بالروح القدس .

✝ إن إيمانـنا لا يستند إلى الآراء الحكيمة المقنعة بل إلى برهان الروح وقوته.

✝ نحن من هؤلاء الذين قال الرب عنهم: "إن قوما من الذين ههنا لا يذوقون الموت قبل أن يروا ملكوت الله آتيا بقوة ".

✝ هـذا هـو الفـرح العظيم الذى جعلنا الرب أهلا له كما قال القديس مكاريوس المصرى: "الحياة فى غمرة الروح القدس، لقد كنت أنا فى صميم نعمة الروح القدس ".

اعتقد الآن إنك لست بحاجة بعد هذا أن تسال كيف يكون الإنسان فى حالة نعمة الروح القدس...

تعاليم القديس سيرافيم الأخيرة لموتوفيلوف

قـال الأب: "مـن الآن لا تعد تسالنى عن كيفية استعلان الروح القدس بصورة مرئية هل سيبقى هذا الإستعلان الواضح فى ذاكرتك ؟ أجاب موتوفيلوف أنه يخاف أن عدم استحقاقه سيحول دون تذكر كل شئ على صحته...

قـال الشيخ: أشعر شعورا مؤكدا أن الله سيساعدك أن تحفظ كل شـئ إلى الأبد فى ذهنك. وإلا ما كان قد استجاب إلى صلاة الحقير سـيرافيم خصوصـا وأن استعلان الروح القدس ليس لك وحدك بل للعالم كله عن طريقك. تقوى فى إيمانك، وستكون مفيدا للآخرين ".

إن التعاليم الأخيرة التى أعطاها الآب سيرافيم إلى موتوفيلوف لها صـيغة عملـية، قال " إذكر أن الرب لم يأت إلى الأرض ليخدم بل ليخدم ولكى يعطى حياة لكثيرين. اصنع هكذا. اشرك أى شخص تواق إلى الخلاص فى النعمة التى أختبرتها، ولا تدفن الفضة التى أودعت إلـيك مـثلما فعل العبد الكسلان... لا شئ مستحيل للمؤمن، إسأل وستجاب كل طلباتك إذا كنت تصلى لمجد الله وفائدة اخوتك. عليك أن تحـدد رغبتك الشخصية أيضا ولكن أحرص أن لا تسال الأمور التى

ستتركها بسهولة وتمضى. ولكن لا تظن أن بعض المتع بالخيرات الأرضية محرم، والرب يعرف أننا نحتاجها لكى تجعل الطريق الصعب الذى نخوضه أكثر سهولة لنا. أنه لا يفصل سعادتنا عن مجده. أنه يريدنا أن نحمل بعضنا أثقال بعض. كل شئ نعمله لاصغر أخوته سيعمل لنا أيضا.

كونى راهبا وأنت علمانى ليس له أهمية. (سيمون اللاهوتى الجديد قال نفس الشئ فى القرن الحادى عشر ولكن فى القرن التاسع عشر كان نصا غريبا) إن الرب ينصت لكلا الراهب والإنسان الذى فى العالم لو كان كلاهما مؤمنا. أنه ينظر إلى كل قلب مملوء بإيمان حقيقى لكى يرسل فيه روحه. لأن قلب الإنسان قادر أن يحوى ملكوت الله. الروح القدس وملكوت الله واحد .

وختم القديس الشيخ: لقد أخبرتك الآن بكل شئ، إمض بسلام، الرب يكون معك وأمه القديسة... آمين .

أضاف موتوفيلوف: إنه أثناء حديثنا من اللحظة التى أضاء فيها وجه الأب سيرافيم لم تتوقف رؤية النور، شاهدت لمعانه غير الطبيعى بعينى هذه وأنا على إستعداد أن أشهد و أوكد ذلك .

شاهد أخر:

هذا وقد قدر لإنسان آخر أن يكون شاهدا لوجود الروح القدس

عــن طريق الأب سيرافيم، وهذا الشاهد هو يوحنا تيشنوف وقد روى كيف عاش فى جو من الغبطة بالكلمات الآتية:

بيــنما كنت أقرأ فى أحد الأيام فى إنجيل يوحنا كلمات المخلص "إن فى بيت ابى منازل كثيرة " أخذنى شوق عظيم لرؤية هذه المنازل الســماوية، فقضيت خمسة أيام بلياليها وأنا أصلى دون نوم طالبا من السيد هذه النعمة والمشاهدة وقد تحنن السيد برحمته الغزيرة وعزانى وأرانــى منازلــه السماوية حيث شاهدت فى ضياء أبهى من الشمس الســائح الأرضى الفقير فى برهة من الغيبة عن الحواسى، بالجسد أم خــارج الجســد لست أعلم الله يعلم شاهدت جمالا سماويا لا يوصف، فرأيت السابق الأول يوحنا المعمدان والقديس يوحنا الرسول والرسل والقديســين والشــهداء واباءنــا الطوباويين أنطونيوس الكبير وسابا وأنفوريــوس وغيرهم، وكانوا مشرقين فى عظمة فائقة الوصف، لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على بال بشر ولكن أعدها الله للذين يحبونه .

صــمت الأب سيرافيم ثم إنحنى قليلا وأغمض عينيه ووضع يده اليمــنى على صدره فأخذ وجهه يتغير شيئا فشيئا ويشرق بنور عظيم حتى أصبح من الصعب جدا النظر إليه، وكان وجهه وهيئته ممتلئتين بفــرح ســماوى ونشوة سماوية كأنه ملاك أرضى أو إنسان سماوى. وطــوال الوقــت الذى ظل صامتا فيه ظهر أنه يخاطب أحدا بلطف

ويسمع كلاما بشوق والله وحده يعلم حقيقة ذلك أما أنا فبرغم عدم استحقاقى سعدت برؤية الأب سيرافيم فى هذه الحالة المقدسة ونسيت جسدى واجتاحت نفسى نشوة لا توصف، والآن كلما خطر ببالى أحس بعذوبة فائقة .

وبعد صمت قصير تنهد الأب سيرافيم تنهدا عميقا ممتلئا من الفرح ثم قال لى " آه لو تعلم ما أعظم الفرح وما أبهى العذوبة التى تنتظر النفس المستحقة للسماء، يجب أن نتحمل فى هذه الدنيا الفانية كل تجربة وكل إضطهاد وكل نميمة. إذا حلت بنا المصائب فعلينا أن نتحمل بكل قوانا لكى لا نحرم من الفرح السماوى الذى أعده الله للذين يحبونه، ففى منازله لا مرض ولا وجع ولا حزن، بل فرح وعذوبة فائقتان وقديسون يتلألأون كالشمس. فأى لسان يستطيع أن يصف هذه العظمة السماوية وجمال وطن الأبرار والغبطة بعد أن عجز بولس الرسول عن ذلك .

افرح وأنت فى جسدك المائت بفرح الفردوس الذى ذقته

فى الغابة وحالة الرفعة عن الأرض:

إعتاد الأب سيرافيم أن يعود إلى كوخه بالغابة بعد صلوات مساء الأحد ويقضى أياما كثيرة من أيام الأسبوع هناك، حيث أن المسافة (٤ ميل) التى تفصله عن الدير كانت فوق عافيته والآلام فى ساقيه

بـدأت تتعـبه مـرة أخـرى فاعتاد أن يتوقف فى منتصف الطريق ويستريح بجوار نبع قد نضب ماءه من زمن. وذات يوم وهو مقترب من هذا النبع رأى أم الله ذاهبة إلى النبع، ومدت يدها إلى المكان الذى كـان به النبع، فرأى القديس مياها عذبة بدأت تتدفق من الأرض. ثم إلتفتـت السـيدة العذراء نحو القديس سيرافيم واخبرته أنها ستجرى أشـفية كثيرة من هذا النبع. وعلى ذكرى هذا الظهور للعذراء إختار الشـيخ هـذه البقعة لسكناه الجديد واسماها "الصحراء القريبة" وحفر كهفا فى تجويف الصخرة الذى بدأ منه نبع الماء ليكون مأواه إذا كان الطقس رديئا. وهو أيضا الذى تبنى فكرة بناء خزان للمياه النابعة من النـبع ومـرات كثيرة تراه وهو يتمايل تحت ثقل مخلاته التى ملأها حجـارة مـن شـاطئ نهر ساروفكا لكى يبنى الخزان، وكان الأب بصـعوبة يـتحرك صاعدا بحمولته هذه إلى أعلى التل، أو نازلا من علـيه. وقد بنى له محبوه كوخا آخر مثل الذى كان فى بطن الغابة، بالقرب من النبع وبسرعة صار نبع الأب سيرافيم هذا مقصدا لزوار كثيرين، وجرت من مياهه أشفية كثيرة، وأصبح الأب سيرافيم يستقبل زائريه هناك، وليس بعيدا عن حافة الغابة، غرس روضة من العشب كـان الشـيخ قد سأل ميخائيل فانتروف أن يشتريها لراهبات ديفيفو. واعتاد الأخوات أن يذهبن إلى هناك لتسوية الحشائش، وهذا ما حدث مرة طبقا لتقرير فى تاريخ دير ديفيفو:

كنا سائرات عبر الروضة، وكان الحشيش أخضرا وطويلا. كان الأب سيرافيم أمامنا... وتوقف فجاة وقال لنا أن نستمر فى المسير، فإطعنا، ولكن عندما نظرنا إلى الخلف بعد ذلك بدافع حب الإستطلاع دهشنا بان نرى الأب سيرافيم سائرا فى الهواء بارتفاع حوالى قدمين فوق العشب !

إن حادثة الرفعة هذه لم تكن الوحيدة فى حياة القديس، فإن تقارير الذين شاهدوا تقول إنهم رأوا أكثر، وهذا يثبت إن حالة الرفعة هذه كانت مألوفة لدى القديس إن هناك لحظات كان جسد القديس (الذى من لحم ودم) يفقد وزنه وثقله وجاذبيته إلى الأرض، ولا تقيم الروح لقوانين الطبيعة وزنا...

إضطهادات

كثيرون هم القديسون الذين فى تشبههم بالرب يسوع المسيح، دخلوا عبر الآلام والمذلات، ومظالم مريعة والقديس سيرافيم كان واحد من هؤلاء: أصوات معادية ارتفعت ضده بمجرد أن وصل إلى قمة الكمال. هذه الأصوات اتت من العالم الخارجى، ومن دير صاروف. وقد سمح الله أن يكون خادمه ضحية وشايات الكراهية الفظيعة حتى تتحقق كلماته (متى٥: ١١) إن العاديين ، والجسد البشرى لم يقدر أن يتحمل جو الإعجاب الذى أحاط بالقديس العظيم. فقد ثار

عليه رئيس الدير مرات... وتعرض لإنتقادات الرهبان اللاذعة... والعلاقة الخاصة التى كانت تربط القديس سيرافيم بدير ديفيفو جلبت عليه وشايات عند السلطات المدنية اتهمت القديس أنه يخبئ الفتيات الهاربات من الخدمة، ولما كان فى ذلك الزمان نظام الرق، وحالات طغيان بين الإماء، اجروا تفتيشا عند الأخوات بالدير، وحتى فى كوخ الشيخ. واتهم أيضا أنه يأخذ خشب النجارين إلى دير ديفيفو كما يعطيه المؤن الخاصة بدير صاروف. لقد وجه إليه اللوم بأنه أدخل قواعد رهبانية جديدة غير مألوفة... قال القديس: "أن أكون حجر عثرة فى هذا العالم لا يقلقنى على الإطلاق " وأكثر من ذلك أنه لم يحاول أن يخفى الحقيقة أنه يصب خمرا جديدا فى زقاق جديد بالنسبة لراهبات ديفيفو.

ولم تكن هذه الإنتقادات هى التى أحزنت قلب الأب سيرافيم، إنما حزن بالأكثر بسبب الناس الذين حاولوا الإيذاء بديره المحبوب محاولين إثارة حتى الأخوات ضده، لقد اكتشفت أن هناك شقاقا ومسكرين قد تكونا فى الدير، وعلى رأس الفريق المعارض راهب صغير من صاروف هو إيفان تخونوفيتش مستغلا مركزه ككنايس [١] بالدير. لقد قدم نفسه إلى الشيخ متظاهرا أن يكون تلميذا له، واكتشف

---

(١) المسئول عن كنيسة الدير.

الأب حـــالا نوايـــاه و خططه المشبوهة ليكون رئيسا للدير بعد نياحة الأب سيرافيم. حاول القديس أولا أن يستميله ويثنيه عن أفكاره، ولكن ضاعت محاولاته ادراج الرياح.

وفـــى أحد الأيام عندما كان الشيخ جالسا بجوار نبع الماء، ورأى أن المـــاء الـــذى كـــان صافيا حتى هذه اللحظة قد أصبح فجأة طينيا عكرا، فى تلك اللحظة كان يمر ايفان تخونوفيتش فقال الأب سيرافيم بحزن إلى أخت صادف وجودها عنده. " هذا هو الإنسان الذى سيتعب الديـــر ويقلبه" لقد رأى الشيخ مسبقا التغيرات التى ستحدث فى ديفيفو بعـــد نياحته، والمتاعب التى ستقسم الأخوات، وتملك على قلبه حزن عميق. ولكى يحمى الراهبات من تأثير إيفان، أوصى الشيخ بكل قلبه صـــديقه المخلـــص موتوفيلوف لكى يرعى شئون الدير الصغير بعد نياحـــته، وهـــذا قد اتمه بكل أمانه بعد انتقال القديس من هذا العالم، ولمدة ١٠ سنوات.

الظهور الثانى عشر لوالدة الإله

كلمـــا جلـــب الـــناس متاعب للقديس سيرافيم، كلما بعثت السماء بـــنورها إليه. وقبل عيد البشارة بيومين (عام ١٨٣١) تلقى إشارة من السماء بأن يعد نفسه لاستقبال ملكة السماء. وقد تم هذا الاستقبال ليلة ٢٥ مـــارس، ولكـــى يمكن إحدى بناته فى الروح أن تشارك فى هذا

الفـــرح – وهى الأم ايوبراكسيا – التى كانت تخوض تجارب عظيمة في حياتها الروحية فى ذاك الوقت، دعاها الأب سيرافيم أن تأتى إليه في المساء. وقد كتبت فى وقائع الدير تفاصيل هذه الرؤيا التى حظيت بهـــا بالمشاركة مع الأب: آه لو تعلمين النعمة التى منحت لنا اليوم ! هكذا قال الأب سيرافيم لها حين وصولها وبعد ذلك بدأ يصلى وسألها أن تصلى معه. لم تذكر الأم ايوبراكسيا كم من الوقت استغرقت هذه الصلاة ولكنها ذكرت أنه بعد دقيقة سمعت صوتا كالرياح وتراتيل من الســـماء، بعـــد ذلـــك رأت نورا باهرا، ورائحة عطرة ملأت الهواء. وانـــتابها خوف عندما رأت الأب سيرافيم يمد يده لشخص ما وصرخ مبـــتهجا: أهـــلا والدة الإله، العذراء غير دنسة، حينئذ رأت ملاكين ســـابقين لرؤية ملكة السماء والقديس يوحنا المعمدان، والقديس يوحنا الرســـول، والأثنـــتى عشر العذارى الشهيدات، ويكونون معا الحاشية الـــتى تحيط بوالدة الإله نورا كنور الوف الشموع قد ملأ القلاية التى بـــدت كأنها متسعة وقد اختفت الحوائط وأصبح الضوء الباهر شديدا لدرجـــة تفوق لمعان الشمس ولم احتملها بعد، وسقطت الراهبة على الأرض وهى فى ذهول. وسمعت والدة الإله – كما من بعيد – وهى تتحدث مع الأب سيرافيم كما مع صديق، ولكنها لم تعى ما قالاه.

الكلمـــات الوحـــيدة الـــتى استطاعت أن تميزها هى التى قالتها العذراء للشيخ " **حـــالا يا صديقى ستكون معنا** ". ثم اقامت والدة الإله

الراهبة وعرفتها بالعذارى الشهيدات اللائى تألمن من أجل محبة ابنها وقالت لها وهى تمس شجون نفسها " **إن الإستشهاد يمكن أيضا أن يكون داخليا حين تجرح قلوب المسيحين التابعين أثر خطوات الرب بالحب الإلهى دون أن تمس اجسادهم** ".

وعندما غابت الرؤيا اخبرت الأم ايوبراكسيا الأب سيرافيم إنها نادمة لأنها لم تطلب شفاعة والدة الإله عند ابنها. ولكن الأب عزاها بقوله إنه طوال الأربع ساعات التى استغرقت الرؤيا كان يتوسل من أجل جميع الأخوات، وجميع الذين يطيعونى (أى يطيعون الأب سيرافيم) ويحفظون كلامى "وأضاف الأب سيرافيم" هذه هى المرة الثانية عشر التى تظهر لى فيها العذراء القديسة، وفى هذه المرة أراد الرب أن تشتركى معى فى هذه الرؤيا، لذلك اذهبى بسلام .

أن منظر والدة الإله محاطة بنور سماوى ويصاحبها يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول وملائكة والعذارى الشهيدات هو منظر الكنيسة المنتصرة الممجدة باكورة ملكوت السماوات الذى ينتظره القديس سيرافيم. إن التى حملت ملك المجد فى جسدها، والروح القدس حل عليها يوم البشارة، بعثت رسالة الحياة الأبدية إلى خادمها الحقير الذي كانت حياته رحلة طويلة من الألم ولكنها أيضا رحلة مجيدة نحو الملكوت المنتظر الموعود به .

الأيـــام الأخيـــرة

" إنـــنى سأرحل، سأترككم حالا "، هكذا كان يقول الأب سيرافيم لزواره الذين أتوا ليروه أواخر عام ١٨٣٢، ويا للضيقات، يا للشدائد الكبرى التى تنتظركم ولكن لا داعى للخوف، عندما ترون الغم قادما أعدوا أمتعتكم. استودعكم فى يدى الرب وأمه القديسة.

كـــان وجهه يضئ باستمرار ويمتلئ نورا كملاك. قال "يا للفرح والبهجة التى تنتظر النفس عندما يرسل الله ملاكه لكى يأخذها ".

لقد بلغ الآن ٧٣ سنة وكانت صحته فى إضمحلال ظاهر. وكانوا يسمعونه يقول "إن جسدى يبدو كما لو كان قد مات فعلا، ولكن نفسى صغيرة كطفل ولد حديثا ".

عـــندما ودع صـــديقه الأب تيمون قال الأب سيرافيم "ابذر البذار التى أعطاك الله إياها فى كل وقت وفى كل مكان ابذرها على أرض جـــيدة، إبذرهـــا علـــى الرمال، ابذرها على الصخور، ابذرها على الطريق، ابذرها بين الأشواك ربما تفرخ البراعم وتحمل أثمارا.

فكـــرة الوزنـــات والأثمار لم تفارقه على الإطلاق وكانت ملهمة ومرشـــدة طـــوال فترة حياته إلى يوم مماته، وكخادم صالح أمين هو مستعد الآن أن يدخل فى فرح الرب إلهه.

قـــبل نياحـــته بوقـــت قصـــير استدعى أب إعتراف دير ديفيفو للراهـــبات وسلمه مسئولية الدير، وعندما ودع بناته بالروح قال لهن

"عندما لا أكون معكن تعالوا إلى قبرى باستمرار واسكبن كل الامكن وأتعابكن، وتحدثن معى كما لو كنت مازلت حيا لأنى ساكون معكن دائما.

أحب الأب سيرافيم أن يفارق الحياة البشرية بشمعة مضيئة، مرة مسك شمعة ورفعها وقال لأحد الرهبان " إطفئها النفخ فيها، فنفخ الراهب وإنطفأت الشمعة " فقال "ستطفأ حياتى سريعا مثل هذا " فحزن الراهب وتأثر فعزاه الشيخ قائلا "هذا ليس وقت حزن يا صديقى ولكنه وقت فرح " وعمل الأب سيرافيم استعدداته الأخيرة، وكتب خطابات، وأعطى نصائح، واوصاهم أن يضعوا أيقونة القديس سرجيوس على صدره عندما يضعونه فى النعش، هى صورة مرسومة للقديس لحظة ظهور أم الله له، وقد افصح عن المكان الذى يرغب أن يدفن فيه بحجة مكتوبة قرب كاتدرائية والدة الإله.

وفى أول يوم من أيام سنة ١٨٣٣ كان يوم أحد فذهب إلى الكنيسة الملحقة بالمصحة. تلك الكنيسة التى أحبها وقبل جميع الأيقونات واحدة واحدة، الأمر الذى لم يفعله من قبل، وتناول من الأسرار المقدسة وودع جميع الأخوة الذين كانوا هناك، وفى المساء سمعه الأخ بولس الذى كان يسكن فى القلاية المجاورة، وهو يرتل تسابيح القيامة ونحو الساعة السادسة صباح اليوم التالى عندما كان الأخ بولس فى طريقه لحضور القداس إشتم رائحة دخان خارجا من

باب قلاية الأب سيرافيم، وقرع ولكن لم يرد أحد، حينئذ أحضر الأخوة الذين كانوا فى فناء الدير فى طريقهم إلى الكنيسة، وفتحوا الباب ظانين أن الأب سيرافيم قد خرج إلى الصحراء، تاركا الشموع تحترق، الأمر الذى حدث كثيرا من قبل. كان الظلام باق فى ذلك الصباح من الشتاء، وفى الظلام لم يقدر الرهبان أولا أن يروا القديس سيرافيم، ولكن بعد أن أحضروا ضوءا رأوه راكعا أمام أيقونة والدة الإله التى يسميها فرح الأفراح، ويداه مضمومتان كالصليب على صدره وعيناه مغلقتان، كتابه المقدس مفتوح أمامه قد احترقت جوانبه وبضع صفحات مازالت اطرافها تدخن، أسرعوا ليحضروا ثلوجا ليطفئوا النار، وبالنسبة للأب سيرافيم كانوا يظنون أنه نائم، ومتعب من القراءة والسهر لأن جسمه كان لم يزل دافئا، ولكنهم بعدما حاولوا إيقاظه وجدوا أن روح القديس كانت قد فارقت الجسد الذىحارب ضعفاته وهزمها حتى أخر لحظة، تحققوا أيضا من النار أنها كانت تحقيقا لنبوة الشيخ، لقد قال بأن نياحته ستعلن بنار، وحيث أنه لم يحدث أى تلف، فلم تكن سوى العلامة التى سبق القديس وأخبر بها.

وضعوا جسد القديس فى كفن من خشب البلوط كان قد أعده من قبل، وحملوه إلى الكاتدرائية، وإنتشر خبر نياحته بسرعة، وبصعوبة استطاعت الكاتدرائية أن تستوعب الأعداد الضخمة التى وفدت من

كل حدب وصوب ولمدة ثمانية ساعات استمر جسد القديس معروضا فى كفن مفتوح حتى يتمكن كل واحد من القاء النظرة الأخيرة عليه.

سمع أنه فى صباح ٢ يناير رأى أحد المتوحدين نورا باهرا فى السماء وقال لتلاميذه " **هذه نفس الأب سيرافيم صاعدة إلى السماء** ".

إعلان قداسة الأب سيرافيم كنسيا:

سبعون عاما مضت على نياحة الأب سيرافيم ولكن ذكراه بقيت حية، فإن تدفق الزوار وعدد المعجزات فى تزايد مستمر، وقد فتح المجمع المقدس رسميا سجلا لقيد وتقصى الحقائق عن هذا القديس ومعجزاته واستمر ذلك العمل ٦ سنوات كاملة. أثناء ذاك حصرت ٩٤ حالة شفاء قد أجريت واعترف بها من شهود وأخصائيين دون إحصاء وقائع الدير العديدة ومئات الخطابات المنهالة عليه.

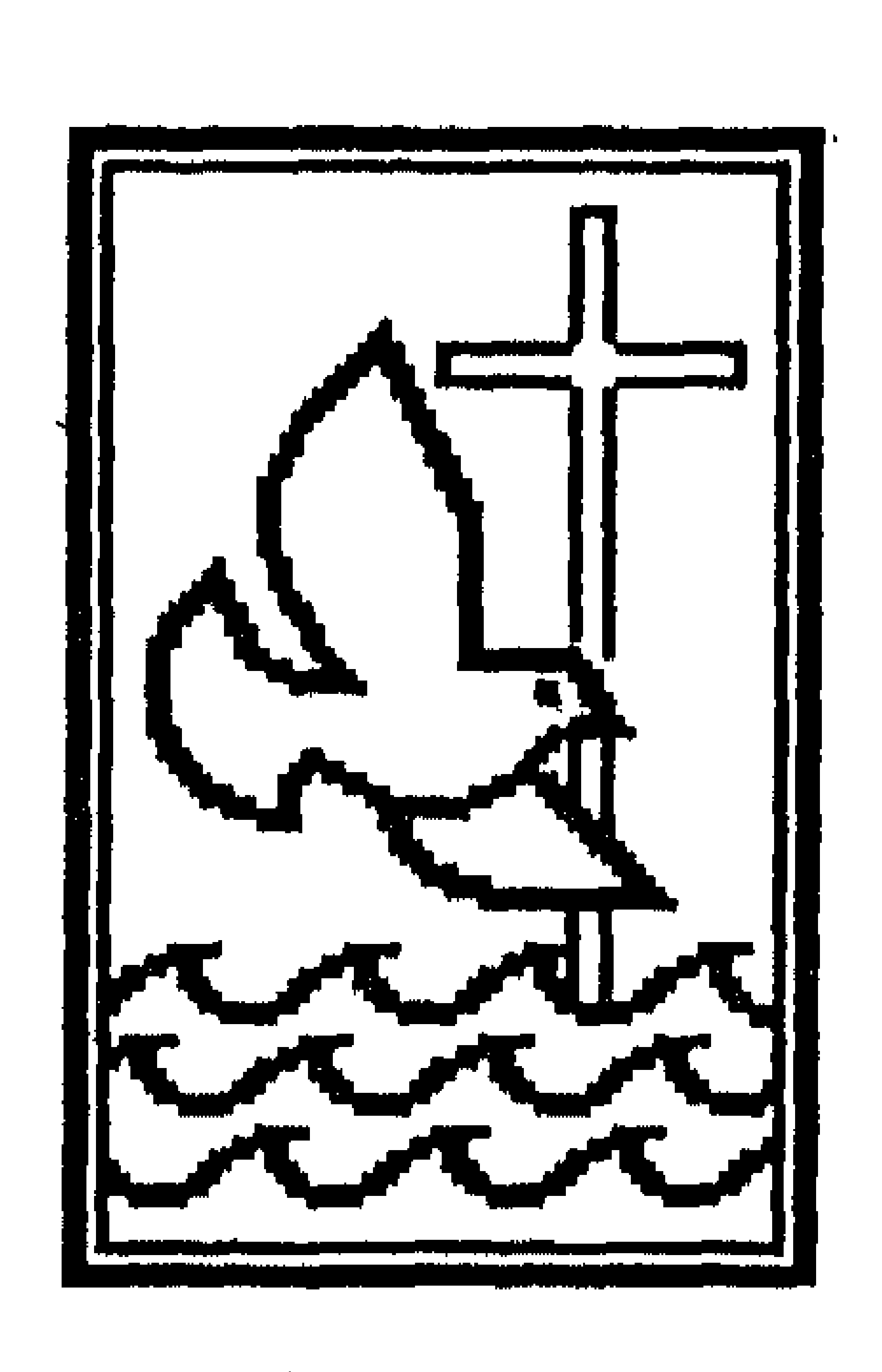
وتحت ضغط الإمبراطور نيقولاوس الثانى، الذى بعد دراسة الحقائق أراد الإسراع فى تطويب القديس، وأخرجت عظامه لتكرم، واشتهرت قداسته، وإعترف به كقديس فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

فى ١٩ يولية سنة ١٩٠٣ أعلن الجرس الكبير لكاتدرائية دير صاروف لجماهير المؤمنين عن خدمة القداس الذى سيكرم فيه القديس لأول مرة كقديس. ولم تمتلئ الكاتدرائية وحدها بل كل الأماكن

المجـــاورة كانـــت غاصة بالجماهير وكل واحد يمسك شمعة مُضيئة، وكانت هذه الألوف من الفتائل الملتهبة تكون شعلة واحدة صاعدة إلى السماء.

ووضع النعش فى وعاء رخامى، وتمثال فضى لكاروب على كل ركـــن مـــن أركانه الأربعة، وإستمرت المعجزات أثناء الخدمة وفى الأيام التى بعدها.

وهكـــذا ســـيرافيم الحقير، الذى كان يدعوا نفسه بالخادم الحقير لوالدة الإله، أعلن فى تلك السنة الخالدة كأحد قديسى الكنيسة الروسية العظماء.



المـــراجـــع

1- IRINA GORAINON, The message of Saint Seraphim.

2- VALENTINE ZANDER, The life of Saint Seraphim.

3- The Penguin dictionary of Saints.

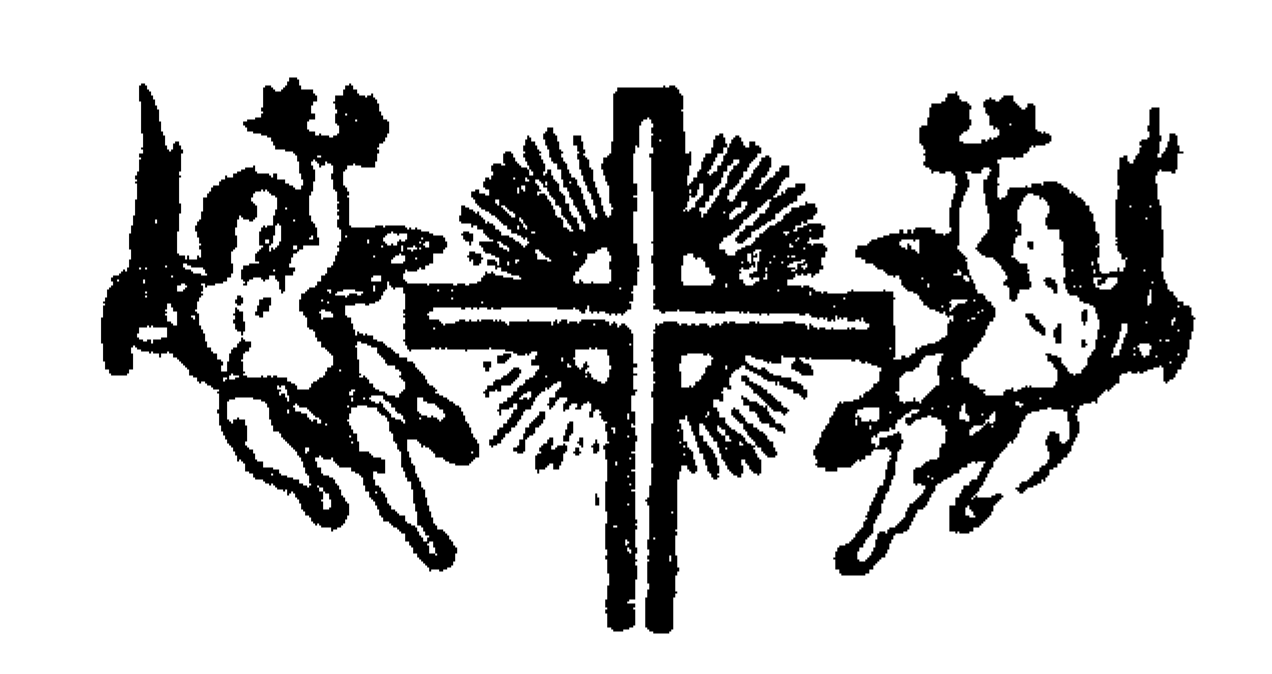
4- PETER F. ANSON, The call of the desert.

5- NICOLAS ZERNOV, The Russian Religious Renaissance.

6- The Journal of the Moscow Patriarchate (1973).

٧- مجلة مدارس الأحد سنة ١٩٥٨ -غاية المسيحية- للقديس سيرافيم.

٨- دير السريان - حياة الصلاة الأرثوذكسية .





الفهرس

الصفحة

الصفحة

٣- تجلى الروح القدس

أسـم الكـتاب : لهيب وسط الثلوج

تألـيـف : الأنبا إيساك

فصـل ألـوان : سكانينج هاوس

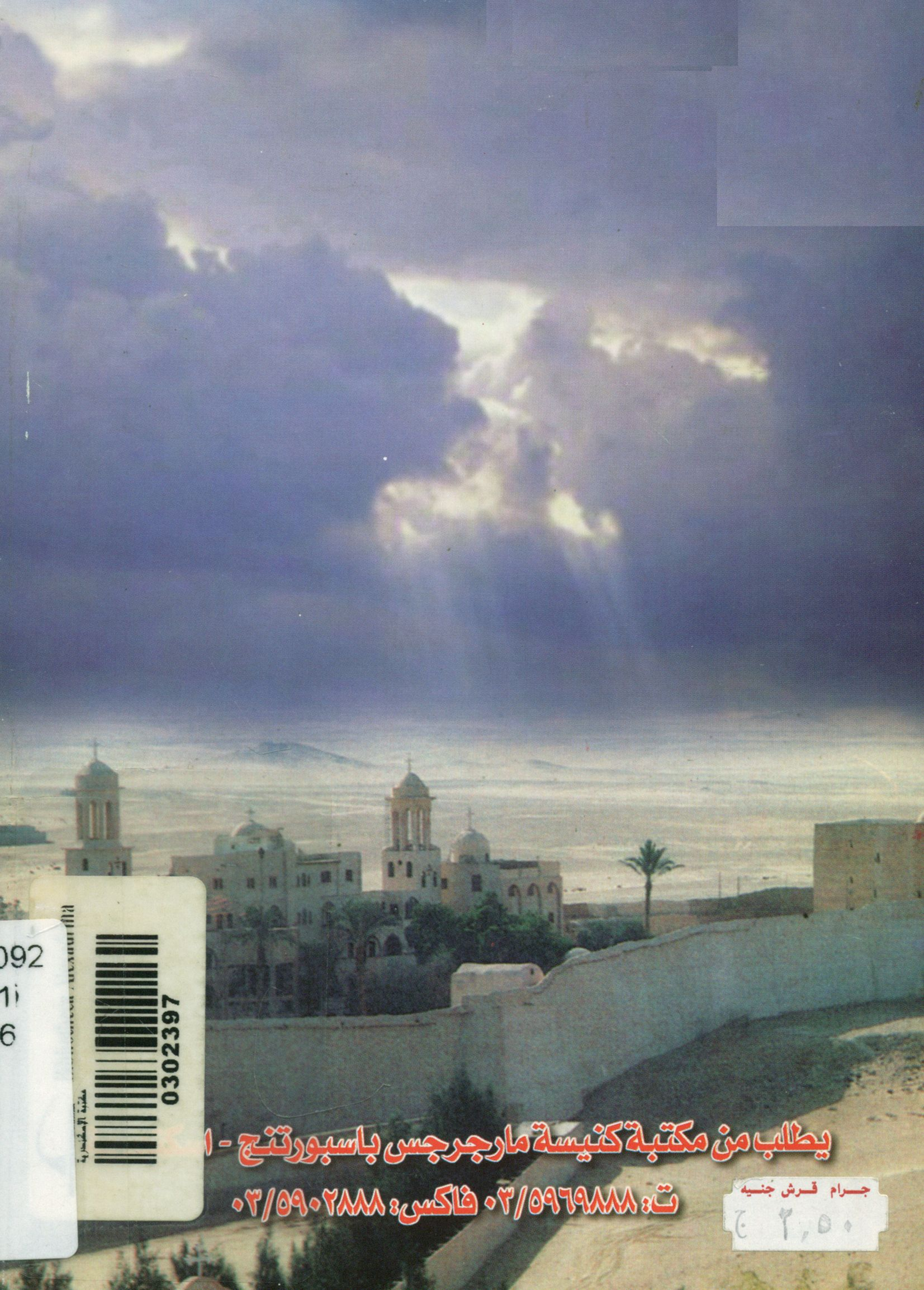
المطـبعة : الكرنك ٤٨٦٢٩٨٠

الطـبعة : الرابعة

رقـم الايـداع : ١٠٦٢٧ / ١٩٩٦م

الترقيم الدولى : 977-19-1791-9 I. S. B. N





يطلب من مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج - ا
ت: ٠٣/٥٩٦٩٨٨٨ فاكس: ٠٣/٥٩٠٢٨٨٨